أنا

في رواية

ذاكرة الجسد

لمستغانمي

النص - السياق - الفكرة

نعمـان شعلان

أنا في روايــة ذاكرة الجسد

لمستغانمي النص - السياق - الفكرة

نعمان شعلان

ⓒ نعمان عبده علي شعلان ، ١٤٤٦هـ

شعلان ، نعمان عبده علي
(أنا) في رواية ذاكرة الجسد (النص - السياق - الفكرة). / شعلان ، نعمان عبده علي .- الرياض ، ١٤٤٦هـ

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١٠٦٠٩
ردمك: ٦-٥٩٢٠-٠٥-٦٠٣-٩٧٨

أنا

في رواية

ذاكرة الجسد

لمستغانمي

النص - السياق - الفكرة

نعمـان شعلان

التصميم والإخراج
أبوبكر العضيب

فهرس

التعريف بالرواية .... 9 - 18
فكرة الدراسة .... 19 - 20
النصوص والسياقات والأفكار .... 21 - 266

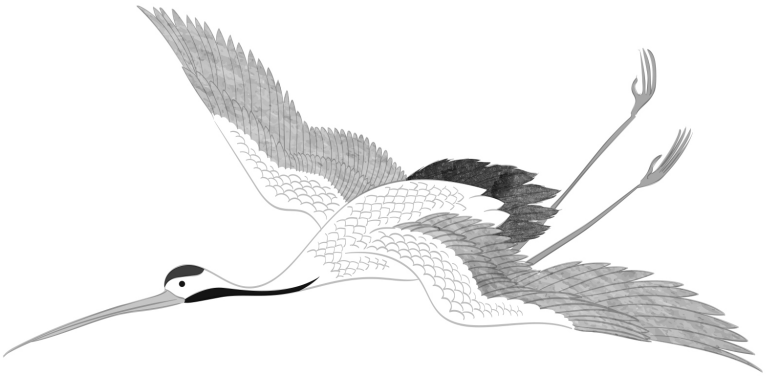

التعريف بالرواية

رواية (ذاكرة الجسد) للروائية الجزائرية (أحلام مستغانمي)، صدرت في العام **١٩٩٣**م، عن دار الآداب - بيروت، توالت طبعات الرواية لتتعدى الأربعين طبعة حتى العام **٢٠٢١**م تقريبًا، ترجمت إلى العديد من اللغات الحيَّة كالإنجليزية والفرنسية والإيطالية، ونالت جوائز مرموقة: أشهرها جائزة نجيب محفوظ للعام **١٩٩٨**م.

(ذاكرة الجسد) مِن الروايات التي أثارت جدلًا واسعًا في موضوعها وأسلوبها وأبعادها الفكرية والوجدانية والنفسية. قدم النُّقاد رؤيتهم النَّقدية بين مادح وقادح، بين متصفٍ بالواقعية النَّقدية، ومتحامل بنزعة هجومية ورؤية سوداوية على بنية الرواية من حيث السرد والحبكة، وعلى سيرها المتناقض داخل مكوناتها الشخصية والجغرافية.

ومع هذا تبقى الرواية مميزة بلغتها السردية الثائرة، وقدرتها على ترجمة المعارك المحمومة بين أطرافٍ عديدة متشابكة – النفس، الذاكرة، التاريخ، الجغرافيا – وما رافقها مِن رجاءٍ وقنوط، وشك ويقين، ووفاء وخيانة.

تتميز الرواية بشاعريتها المتوقدة في جميع الفصول والمشاهد، الوصف والتحليل، الحوار والمناقشة، الانتقال والحركة، في انتزاع الذكريات مِن مخبأ معجون بالعصيان والتمرد، بالنقمة والشوق .. الأسئلة الضائعة في متاهة الأجوبة، انصهار المكان والجبال والصخور في بوتقة النفس بكل أغوارها.

لغة الرواية بديعة جذابة، سرد ممتع، واسترسال مذهل، ألفاظ متجددة، ومعان متوالدة، كلما زاد القارئ غوصًا في شعابها زاد حماسًا في استكشاف أسرارها.

أربعمائة صفحة .. دوامة موج في بحر غاضب، زوبعة إعصار في رمل متحرك، لا يهدأ حتى يثور، ولا يخمد حتى يفور، قضايا متأججة صارخة، تشتعل كلماتها بحروفها، النار والحطب .. الجمر واللهب، مثيرة بأفكارها وأشخاصها وأبعادها السياسية

والاجتماعية، ثنائية التضاد المتصادم .. الحب والحرب، الثورة والخيبة، الاستقلال والاستغلال، الغيرة والخيانة، جسور وقناطر، منعطفات للنسيان وتشققات في جدار الذاكرة.

للرواية محاور أساسية مثلت خيوطًا متناثرة الأطراف تجمعها عقدة في كفٍ واحدة: (ثورة الجزائر، جسور قسنطينة، رسوم نهر السين بباريس، ذكريات غرناطة، تونس وفلسطين ولبنان، حياة، سي الطاهر والشريف وناصر وحسَّان، مصطفى وزياد الخليل، عتيقة وأمّا الزهراء وكاترين الفرنسية، ...) أماكن وأسماء وأحداث لا تكف عن الضجيج والنَّشيد على امتداد الصفحات وبين السطور والكلمات، ما إن تنام للاسترواح هنا حتى تستيقظ للصراخ هناك! تسوَد في ضوء النهار الواضح، وتلمع في ظلمة الليل الحالك، تجمع في طياتها الدفء والصقيع، الشتاء والمصيف.

تتكون الرواية من ستة فصول كتقسيم خاص بالكتاب ليس له علاقة بأحداث الرواية وتسلسل مراحلها، تتركز الأحداث في مكانين أساسيين (باريس) فرنسا، و(قسنطينة) الجزائر،

وتتلخص الفصول في الآتي:

بدأ الفصل الأول من آخر مشهد في تسلسل الأحداث، جلوس الرسام (خالد) في منزل شقيقه (حسَّان) الذي قُتل قبل ثلاثة أسابيع، جاء من باريس لإجراء مراسيم الدفن واستقبال العزاء، كان ذلك في العام **١٩٨٨**م، هو ذا جالس الآن .. يسوِّد روايته ليرسلها إلى (حياة)؛ ليقتلها بالحروف والعبارات، ليدفنها بين السُّطور والكلمات، صادف أن شاهد أثناء الكتابة صورة (حياة) تتصدر غلاف مجلة شهيرة تتضمن حوارًا مطولًا معها حول روايتها (منعطف النسيان)، هذه المصادفة ولَّدت في نفس (خالد) مزيدًا مِن النِّقمة، كانت المصادفة حافزًا كي يستكمل قصته ويجعل من قلمه بندقية مزودة بالغل والحقد والكراهية.

جاء الفصل الثاني ليصنع الخطوة الأولى في تسلسل الأحداث، (خالد) .. في قاعة فسيحة يعرض لوحاته الفنية ورسومه المتألقة، قوافل الزوار تتوافد تباعًا وتغادر على مهل .. في نشوة الأفراح بالمديح والإعجاب يقابل (خالد) فتاتين فينذهل وهو يكتشف أن واحدة منهما ابنة قائده وأحد قادة الاستقلال (سي

طاهر)، إذن هذه (حياة) التي أرسلني والدها القائد (سي طاهر) يوم جُرحتُ إلى حدود تونس، ووضع في جيبي مبلغًا من المال، وطلب مني أن أزور عائلته هناك وأتفقد طفلته (حياة) وأسجلها في مركز البلدية باسم (أحلام).

وصل (خالد) مشفى حدود تونس وهناك قرر الأطباء بتر ذراعه، ولا دواء غير البتر، نصحه الطبيب اليوغسلافي (كابوتسكي) أن لا يستسلم للإعاقة؛ وعليه أن يختار موهبة يحبها فيتعلمها ويتقن فنونها .. فاختار الرسم.

أصبح (خالد) بذراع واحدة .. بعد تعافيه النسبي ذهب إلى مركز البلدية وسجل (حياة) رسميًا باسم (أحلام)، لكنها بقيت على اسمها القديم، وبعد استشهاد (سي طاهر) خفت صوت الأبطال وارتفع ضجيج النشاز والمتسلقين .. حينها غادر (خالد) إلى باريس.

تناول الفصل الثالث يوميات اللقاء بين (خالد) و(حياة) في المعرض ثم في المرسم، تبادلوا الكثير من الحوارات والمناقشات حول فن الرسم وأبعاده الفكرية والفلسفية والتاريخية،

وخصوصًا لوحة (حنين) لجسر الحبال بـ(قسنطينة) الجزائر، تحدثا كثيرًا عن الشعر والأدب والفنون والفلسفة .. نزار قباني، زوربا، ميشيما، نيتشه، ودافنشي، فان غون، بيكاسو ...، وقضايا عالمية كفلسطين ونضالها وشعرائها وبالأخص الشاعر (زياد الخليل) الذي ارتبط اسمه بأحداث مفصلية في ثنايا الرواية، وتحدثا عن ذكريات تتعلق بطفولتها وأبيها وأمها وجدتها (أم الزهراء) .. بدا لـ(خالد) أنَّه وجد ما بحث عنه طويلاً .. وجد نفسه وذاكرته وجذوره الدفينة.

في الفصل الرابع قررت (حياة) قضاء عطلتها الصيفية في الجزائر، شعر (خالد) بفراغ نفسي مريع؛ فأخذ يرسم جسورًا وقناطرَ لـ(قسنطينة)؛ عساها تخفف مِن لوعة الحنين ولهيب الأشواق، وخلال هذه الفترة عاد صديقه (زياد الخليل) من سفرة طويلة، هذا الشاعر الفلسطيني المفعم بالحيوية والنشاط، الممتلئ بالذكاء والرجولة، فرح (خالد) بعودته وأنزله شقته، أفرد له غرفة خاصة .. ولما عادت (حياة) من الجزائر قدمها (خالد) إلى صديقه (زياد) عرفه عليها، وكانت قد قرأت ديوانه الشعري الذي استعارته من مكتبة خالد.

في هذا المنعطف .. شعر (خالد) أن علاقة ودية تنمو بين (زياد) و(حياة)؛ تأججت نيران الغيرة في قلبه، ازداد لهيب النَّار توقدًا .. اضطر للسفر إلى (غرناطة) لترتيب معرض رسومه القادم هناك .. ولما عاد كانت قد اكتملت دائرة الشكوك والنقمة وسوء الظنون.

بعد أيام دخانية أخبر (زياد) صديقه (خالدا) رغبته السفر إلى لبنان ثم فلسطين للقتال ضد المحتل، اندهش (خالد) لهذا القرار .. كيف ذلك؟! وهذه الظنون قد أخذت بخطامه إلى مكان سحيق، سافر (زياد) ليلقى مصرعه شهيدًا في حزيران **١٩٨٢**م، تاركًا لـ(خالد) ندمًا وحشيًّا، وحقيبة أودعها تراثه الملحمي .. قصائد الفداء والبطولة ضد الغزاة المحتلين.

جاء الفصل الخامس كصاعقة مدوية زلزلت كيان (خالد) ومزقت روحه، تلقى اتصالًا من عم (حياة) السي (شريف) كبير عائلة عبدالمولى وشقيق القائد الشهيد (سي طاهر)، سلم عليه .. ويدعوه راجيًا موافقته على السفر معه إلى (قسنطينة) لحضور زفاف ابنة أخيه (حياة) بنت (سي طاهر عبدالمولى)!! ما

الذي سمعه (خالد)؟؟ خبرًا أم رصاصة؟؟ سهمًا اخترق كبده.

لا مناص .. لا مجال للاعتذار!! العودة إلى (قسنطينة)؟؟ منبت الروح ومرعى الطفولة، حلبة المآسي والذِّكريات .. يعود إليها؟ يحضر مأتم جنونه في مناسبة كبيرة سموها أفراح (حياة)؟! أي مأساة هذه؟! يكتوي بنارها في مدينة تحيطها القلاع والصخور والجسور، النَّار والثِّمار والكهوف .. سافَر معهم .. مع عائلة (حياة) مع (حياة) نفسها.

في (قسنطينة) استعاد (خالد) ذكريات الماضي، البيت الكبير، شوارع المدينة القديمة، ممشى الجسور العتيقة، قبور الأولياء والصالحين .. تاريخ الرومان والباي صالح وسيدي عبدالمؤمن ومحمد الغريب، وكل الأساطير الجميلة.

في ليالي (قسنطينة) سامر (خالد) شقيقه (حسَّان)، اكتشف مآسي الإنسان الجزائري، مأساة المعلم والموظف والمرأة والفلاح .. عجز المتدين العائد إلى الله عن تحقيق رحلة دينية إلى مكة لأداء فريضة الحج، بينما السُّراق يسافرون إليها كل عام للتجارة والمفاخرة، هؤلاء اللصوص ممن تنكروا لثورتهم ونهبوا خيرات

أوطانهم لمصالحهم الشخصية لم تسلم منهم حتى تلك الأماكن الطاهرة المقدسة، أنت في بقعة قصية لا مكان فيها للشرفاء، والمقاعد كلها محجوزة للخونة والقوادين وسراق الثورات.

كان صباح يوم العرس بالنسبة لـ(خالد) يوم شقاء مُر، خرج من البيت يهيم في شوارع المدينة مثل غريب بصقته الأيام إلى موائد اللئام .. وفي نفس الوقت خامره شعور بالتوبة والإنابة، بالتعالي على شهوة النفس ورغائب الجسد، قادته خطاه إلى محيط سجن (الكُديا) استعرض بخياله يوميات النِّضال، ووجوه الأبطال، رفاق الدرب وأسود الثورة والتحرير والكرامة .. انتهت به قدماه إلى قبر أمه، جثى على ركبتيه فوق التراب الساكن .. بكى وناح .. ندب حظه العاثر الكئيب.

في الفصل السادس والأخير ذهب (خالد) مجبرًا إلى عرسك يا (حياة)، لبس بدلة سوداء، شاهد نجمة الليل هاربة من أفلاكه، تاركة له وقيد الجمر مشتعلاً .. لا ينطفئ أواره، ولا يخبو سعيره.

في ذلك الفرح الباكي شاهد البطون المنتفخة وكبار السُّراق والانتهازيين .. شاهد العريس (سي مصطفى) الذي كان رفيق

نضاله وشاهد جرحه الأول .. ها هو اليوم سمسار شهير لأكبر عمليات النَّهب وتمرير الصفقات المشبوهة .. مرشح لتولي وزارة سيادية في البلد، ورغم الوجوه الخانقة التي شاهدها لكنه التقى أشخاصًا يقرأ في وجوههم عناوين الرفض والإباء .. مثل (ناصر بن سي طاهر) شقيق (حياة) الذي كان رافضًا لمشروع هذا الزواج ومصممًا على الغياب لولا جهود (حسَّان) في مراضاته وإقناعه بواجب الحضور.

انتهى العرس وعاد (خالد) إلى باريس كطائر قلق ينوء على جناح واحد، عاد مودعًا أخاه (حسَّان) الذي تعلق به كثيرًا، ووعده بشراء سيارة وترتيب رحلته لأداء الحج في موسم قادم.

في العام **١٩٨٨**م، بعد عودة (خالد) إلى باريس بست سنوات جاءه خبر مقتل شقيقه (حسَّان)، فاجعة ليست في الحسبان، محنة تضاف إلى قائمة الكوارث والنكبات المتوالية. قرر (خالد) أن يترك (باريس) ويعود إلى (قسنطينة)، استدعى صديقته الفرنسية (كاترين)، رمز التيار التغريبي في بناء الرواية .. وهبها جميع لوحاته وعاد بذراع واحدة .. وأخٍ مقتول على رصيف دونما سبب .. وفي القلب وخز مِن ذكريات حبيبة لم تكن حبيبة .. مثل وطن مستهام بالتنكر والخيانة والمكيدة.

فكرة الدراسة

تكررت قراءتي للرواية وعاودت سماعها صوتًا، وشاهدتها مسلسلاً تلفزيونيًا، وطالعتُ ما كتب حولها مِن أراء ودراسات، وفي كل مرة أعود إلى قراءتها ألحظ تكرارًا كثيفًا في ضمير المتكلم (أنا)، أجده يعترض قراءتي باستمرار، أسمعه وأراه وأحسُّه نغمة يدلني على ذاته في كل صفحة تقريبًا، هذا الاسم المستتر يبهرني! أطرب لجرسه حين يتعاظم بالتَّجسيم والفخامة! وأحزن حين يتوارى تحت أستار الضعف والمذلة! ثلاثي الحروف بين أَلِفين شامخين (أنا)، يستوقفني عند كل فقرة فيجبرني على الوقوف والعودة إليه وفيه ثانية وثالثة؛ حتى صار (أنا) منبهًا اشتراطيًا يثير تأملي ومعاينتي في الفقرة المكتوبة، انظر ما قبلها وما بعدها، مستمتعًا باستجلاء المدلول والسِّياق والإيحاء، معللاً حسن الانتقاء أو مستنكرًا ضعف الاختيار.

ولهذه القراءة المركزة رأيتُ أن أقتصر في دراستي لهذه الرواية على متعلقات الضمير (أنا)، أنتزع النص المقيد بلفظ (أنا)،

وأراجع السِّياق الخاص بالفقرة كاملة، ثم أسجل الفكرة التي تخطر لي مستعينًا بألفاظ مِن السرد العام للرواية أو بأفكار مقاربة للأهداف والمقاصد.

أردت ذلك لأعيش (أنا) والقارئ متعة استثنائية في ضفاف جدول كثير السواقي، وارف الظلال، ممتد الخمائل .. في ثنايا قصة جميلة السرد، خضيرة الأوراق، زاهية الألوان، نضيرة الغصون، متفتحة الأزهار والورود.

سيلحظ القارئ نوعًا من التكرار من حيث الأفكار والمعاني لا من حيث الألفاظ والمباني، وهذا يعود إلى أسلوب الرواية في تكرار عودتها إلى مشاهد سبق الحديث عنها، تكررت بعض المشاهد والأحداث بشكل ملحوظ، وهذا مما عدَّه النُّقاد عيبًا في الرواية، ولما كان تتبعنا لمسار اللفظ (أنا) هدفًا عامًا في هذ البحث فقد أُلزمنا بالتعامل مع هذا التكرار كواقع فرضته الرواية وأُجبرت عليه الدراسة.

النص - السياق - الفكرة

النص - صفحة 9

﴿ولا بد أن أعثر أخيرًا على الكلمات التي سأنكتب بها، فمن حقي أن أختار اليوم كيف أنكتب؟ أنا الذي لم أختر تلك القصة﴾.

السياق

تبدأ الراوية حكايتها على لسان (خالد)، بعد ثلاثة أسابيع من مقتل أخيه (حسَّان)، محطته الأخيرة في الحياة، يجمع أوراقه ليكتب الرواية ذاتها، يبدأ من نقطة جلوسه في مدينة قسنطينة، عائدًا إلى الوراء خمسين عامًا ليصل بعدها إلى اللحظة نفسها التي هو فيها الآن.

الفكرة

بطل الرواية في لحظة التجلي الأخير، كيف يكتب عن نفسه، عن معاركه النفسية المتداخلة مع الحياة بكل جوانبها (الشخصية والاجتماعية والنفسية)، يتساءل كيف سينكتب بصورة أقرب إلى الحقيقة؟ كيف سيقرأه القادمون كما يريد أن يقراؤه؟!

النص - صفحة 13

"كيف أنت؟ يسألني جار ويمضي للصلاة".

"كيف أنا؟". "أنا ما فعلته بي سيّدتي .. فكيف أنتِ؟".

السياق

المدينة "قسنطينة"، الفتاة "حياة بنت سي طاهر عبدالمولى"، المكان والإنسان والأوراق الأخيرة، يجيب (خالد) عن سؤال ويردف إجابته بسؤال للغائبة جسدًا، الحاضرة حسًّا، يعكف أخيرًا على كتابة الرواية، تحيطه ذاكرة صماء لا تتكلم، الأبواب والنوافذ تسأل عن حاله، فيأتي جوابه على هيئة نصوص مبعثرة بين الصفحات.

الفكرة

في خضم الانفعالات النفسية للكاتب أثناء ترتيب الفكرة، وحشد الكلمات لبناء النص الروائي، تصبح المآذن والأصوات والمشاهد وحركة الموجودين أدلة سير تأخذه إلى مراقد الذاكرة، يصاب بالشرود الذهني والجمود الخيالي، فيصيح متسائلاً: كيف أنتِ؟ وحده السؤال يعيده إلى المسار!

النص - صفحة 15

"رحتُ أفك رموز كلامك، كنتُ أقرأك مرتبكًا، متلعثمًا، على عجل، وكأنني أنا الذي كنت أتحدثُ إليك عني، ولست أنتِ التي كنت تتحدثين للآخرين، عن قصة ربما لم تكن قصتنا".

السياق

تفاجأ (خالد) وهو يتصفح جريدة عابرة ليرى صورة (حياة) في نصف صفحة بأكملها، وحوار صحفي بمناسبة صدور كتابها الجديد، كانت (حياة) رمزًا للذاكرة الجريحة، للحب التائه المتقلب، للوطن الذي يضحي من أجله أبطال، ويسلب خيراته آخرون.

الفكرة

(خالد) ضحية ومأساة، والرواية واحة من التأمل تصدرتها (حياة)، هذه الهاربة .. تشعل ركام الجمر الخامد في مواقد الذاكرة، تختلط النقمة بالحنين، والأشواق بالحقد الدفين، تثور النفس شقاءً وهي تستعيد ذكريات الفشل ولحظات احتراق الأحلام في عتبات المرأة والوطن.

النص - صفحة 16

"فكيف لا أرتبك وأنا أقرأك؟".

السياق

يقرر (خالد) ارتباكه عندما شاهد صورة حياة .. جريدة وصورة وحوار، مادة صحفية للقارئ، وغصة نفسية للتائه المشرد.

الفكرة

كل كلمة في الحوار تُقرأ بألفاظها، وتدل على معانيها الظاهرة، لكن (لخالد) – كما أرادت الكاتبة – قراءته الخاصة، يبحث فيها وراء اللفظ لعله يجد ما افتقده، لعله يستعيد ما فاته، لعل دواءً بين السطور.

النص - صفحة 16

"تساءلتُ كثيرًا بعدها، وأنا أعود بين الحين والآخر لتلك الصورة، كيف عدتِ هكذا لتتربصي بي؟ أنا الذي تحاشيت كل الطرق المؤدية إليك".

السياق

أكمل (خالد) قراءة الحوار على طريقته الخاصة، ليجد نفسه حطامًا مبعثرًا في جسد، مطارد مِن الوهم والفراغ واللاشيء.

الفكرة

قراءة الحوار الصحفي بأثر رجعي بائس جعل (خالد) يرى في شبح (حياة) غولٌ جائع .. يتربص به أينما ذهب، يطارده مهما تحاشى طريقه وهرب.

النص - صفحة 16

"ها أنا أمام نسخة منك، مدهوش مرتبك، وكأنني أمامك".

السياق

بعد قراءة (خالد) للحوار الصحفي، قال إنه وجد نفسه أمام نسخة من (حياة) مدهوش، مرتبك، لأنها ذات النسخة التي عرفها .. ذات النسخة بكامل الأنانية والخيلاء.

الفكرة

الحالة النفسية للقارئ الناقم تجعله يركز على العثرات والأخطاء، يدرك محاولات الهروب والمراوغة أثناء الإجابة الصحفية، يتوهم عباراتها سراب ودخان، لذلك قال (خالد): إنه أمام نسخة منها، وهو يعي تقلباتها وتنكرها.

النص - صفحة 19

"فربّما كنتُ أنا ضحيّة روايتك هذه، والجثة التي حكمتِ عليها بالخلود، وقررت أن تحنِّطيها بالكلمات .. كالعادة".

السياق

ما زال خالد يحاور (حياة) وهو يتأمل صورتها وحوارها في الجريدة، ومما قاله: مَن يناقش (نيرون) يوم أحرق روما حبًا لها، وعشقًا لشهوة اللهب، وأنتِ!! أما كنت مثله امرأة تحترف العشق والحرائق بالتساوي؟!

الفكرة

ها هو (خالد) يرى ذاته ضحية مِن ضحايا (حياة)، حياة الوطن، وحياة الحب، وحياة الأعاصير المتقلبة، بل اعتبر نفسه جثَّة حكمت عليها (حياة) بالخلود المحنط بعد تكفينها بالحروف والكلمات، وكعادتها .. تُحنِّط أبطالها الصرعى بسطور في رواية.

النص - صفحة 20

"أنا الذي كنتُ، حسب قانون الحماقات نفسه، الشاهد والشهيد دائمًا في قصة لم يكن فيها مِن مكان سوى لبطل واحد".

السياق

المكان واحد، والأبطال كثيرون، فكل شاهد في قصة الحب هو شهيد في ذات الوقت، كان (خالد) نفسه واحدًا من أولئك الأبطال شاهد وشهيد لم يمت بعد.

الفكرة

كيف نعرف قانون الحماقات من الناحية النفسية؟ لعلك تشاهد ضحايا الحب والتطلع يتساقطون صرعى هنا وهناك، وتظن أنك الناجي الوحيد، وما تكاد تتعدى الحواجز الأولى لتكون شاهدها وبطلها حتى تصير ضحية جديدة، ويناديك شعور من الداخل: اترك المكان لقادم آخر.

النص - صفحة 21

"أقول وأنا أضع عليه حزمة مِن الأوراق التي سودتها في لحظة هذيان .. حان أن تكتب أو تصمت إلى الأبد أيها الرجل".

السياق

كان (خالد) يقرأ الحوار الصحفي بسطور ظاهرة وباطنة، يقرأ تعليقًا بارزًا يقول عن رواية (حياة) بأنها "حدث أدبي"، وضع (خالد) أوراقه على الصورة ليقرر الاستمرار في الكتابة .. كتابة قصة كان شاهدها وشهيدها .. فليكتب قبل أن يصمت إلى الأبد.

الفكرة

جثّة محنطة بالكلمات .. مودوعة في رواية لـ(حياة)، يحاول (خالد) الجثّة أن ينتفض، أن ينتقم، أن يقتل خصمه بالكلمات أيضًا، بركان من الإحساس والانفعال يثور في الأعماق، سينفجر حممًا غاضبة على شكل رواية مضادة، غضب النفس يتشظى إلى حروف وكلمات.

النص - صفحة 22

"تراني أنا الذي أدخُل الشيخوخة .. أم ترى الوطن بأكمله الذي يدخل سنَّ اليأس الجماعي؟".

السياق

في خضم الحوار الذاتي أمام صورة (حياة) يزحف الليل على مدينة قسنطينة، البرد والخوف والسآمة، شَعر (خالد) بشيخوخة قادمة مع الليل، لم يكن قد شعر بها من قبل، تذكر قصيدة "الشيخوخة" للشاعر "هنري ميشو"، أحسَّ لأول مرة بثقل السنين العاتية.

الفكرة

شعر (خالد) بشبح الشيخوخة ليس على تقاطيع وجهه فحسب؛ دلته أيضًا نفسه المثقلة بالأحزان على أماكن أخرى داهمتها الشيخوخة .. مدينة قسنطينة .. الوطن بأكمله .. سن اليأس الجماعي يجتاح كل شيء، عبَّر عن حالة نفسية بائسة وهو يقول: ولم يعد بوسعنا إلا أن نتوحد مع الجمر المتطاير من فوهة البركان.

النص - صفحة 24

"أغرتني هذه الفكرة مِن جديد، وأنا أستمع إلى الأخبار هذا المساء وأكتشف، أنا الذي فقدت علاقتي بالزمن، أنَّ غدًا سيكون أول نوفمبر .. فهل يمكن لي ألَّا أختار تاريخًا كهذا، لأبدأ به هذا الكتاب؟".

السياق

يحاول (خالد) أن يحدد تاريخًا مميزًا لكتابة روايته، تفاجأ أن غدًا أول نوفمبر، ذكرى مرور أربعة وثلاثين عامًا على انطلاق ثورة تحرير الجزائر، موعد مناسب تجتمع في طياته ذكريات الانتصارات ومرارة الهزيمة.

الفكرة

تنقطع العلاقة بالزمن في زحمة الأشغال اليومية، نلاحق الأحلام وننسى ترتيب الزمان والمكان، ثم تأتي أحداث ومواقف تعيد اتصالنا النفسي بالزمن الشارد، نتحسس موقعًا مناسبًا ونجعل منه عنوانًا بارزًا لمغامراتنا، أو علامة فارقة لفشلنا.

النص - صفحة 28

"ها أنا أذكره في ليلة لم أحجزها له".

السياق

في ليل قسنطينة البارد، وفي حمحمة الذاكرة الجريحة، يتذكر (خالد) قائده العسكري ووالد (حياة) (السي طاهر) ذلك الاستثنائي مِن الناس، وواحد من القلائل الذين قدموا أرواحهم فداءً للوطن، فتخلى الوطن عن القيم التي روَّاها أولئك العظماء بدمائهم.

الفكرة

رغم تزاحم النفس والمشاعر بفواجع الانكسار واليأس والهزيمة، لكن تبقى في النفس زوايا محجوزة للعظماء، ولكل تاريخ باذخ بالفخر والأمجاد، تشرق تلك الزوايا مثل كوكب دري .. يشرق بذاته المضيئة، ويفاجئ المحزون بجميل أنواره وبريق سناه.

النص - صفحة 35

"وكنت فيها أنا من عداد الجرحى بعدما اخترقت ذراعي اليسرى رصاصتان، وإذا بمجرى حياتي يتغير فجأة، وأنا أجد نفسي من ضمن الجرحى الذين يجب أن ينقلوا على وجه السرعة إلى الحدود التونسية للعلاج".

السياق

يتذكر (خالد) سنوات التحرير الأولى، يوم كان ضمن مجموعة قائده (سي الطاهر)، والد (حياة) وأُصيب في المعركة برصاصتين، وتقرر نقله إلى حدود تونس، وهناك قرر الطبيب بتر ذراعه اليسرى.

الفكرة

الذراع المبتور غيَّر مجرى حياة (خالد)، بل أصبح ذلك الذراع المفقود مادة أساسية في مسار الرواية، يُبتر ذراع من جسد فينبت في الروح حالة من التمرد على العجز القادم، ينتفض المعاق رافضًا الاستسلام، يحاول أن يكون شيئًا في الحياة .. أن يكون بأكثر من ذراع وقلب وإرادة.

النص - صفحة 36

"كانت تلك أول مرة سمعت فيها اسمك .. سمعته وأنا في لحظة نزيف بين الموت والحياة، فتعلقت في غيبوبتي بحروفه، كما يتعلق محموم في لحظة هذيان بكلمة".

السياق

(حياة) هكذا اسمها منذ ولادتها، لكن والدها (سي طاهر) اختار لها اسمًا آخر، كتبه في ورقة مع عنوان المنزل ووضعها في جيب (خالد) الجريح.

الفكرة

اسمان لفتاة واحدة: (حياة) و(أحلام)، حياة .. اسمها العائلي، أحلام .. اسمها الرسمي، ولكل اسم مدلوله اللفظي والنفسي، استطاعت الكاتبة أن تجعل من فكرة الثنائية سببًا تضطرم لأجله معارك النفس، فتظل مستعرة متنقلة بين أعمار الشباب والرجولة والشيخوخة.

النص - صفحة 37

"لقد انتظر ستة أشهر، فلماذا لا ينتظر أسابيع أخرى؟ ولماذا أنا بالذات؟

أيُّ قدر جعلني أحضر إلى هناك بتوقيتك؟".

السياق

عندما نقلوا (خالد) للعلاج وبتر ذراعه، وضع (سي طاهر) في جيبه ورقة ونقود، وطلب منه تسجيل ابنته (حياة – أحلام) في دار البلدية عندما يجد وقتًا لذلك، الآن يسأل (خالد) نفسه عن القدر الذي ساقه إلى منزل الطفلة (حياة)؟!

الفكرة

دهشة لقاء(خالد) بالشابة (حياة) في معرض باريس بعد سنوات متطاولة تبعث في نفسه تفاصيل تلك الفترة، يعيشها لحظة بلحظة ويسأل أسئلته المنطقية وغير المنطقية، والأسئلة بعد تولي أزمانها هل يفيد منها جوابًا؟

النص - صفحة 42

"الاسم الذي منحتُه لتعيشي وليمنحك الله الحياة، والذي قتلته أنا ذات يوم، وأنا أمنحك اسمًا رسميًا آخر، ومن حقي أن أُحييه اليوم، لأنه لي ولم يُنادِكِ به رجل قبلي".

السياق

سجل اسمها في دار البلدية (أحلام) كما قرر والدها، لكنها ارتبطت باسمها القديم (حياة)، و(خالد) وحده من يعلم بهذه الحكاية.

الفكرة

المناضل الجسور (سي طاهر) يمنح ابنته اسمًا ويكتبه على ورقة، لكنها تعيش باسم آخر، دلالة الانفصام بين الحقيقة والادعاء، تجسيد واضح لفكرة التنازع بين الذات والذات.

النص - صفحة 43

"أنا الذي أعرف الحلقة المفقودة من عمرك، وأعرف ذلك الأب الذي لم تريه سوى مرات قليلة في حياتك".

السياق

كان الشاب المجاهد (خالد) مبعوث القائد (سي طاهر) إلى منزل عائلته في تونس، صديق العائلة، ومكلف بتسجيل طفلته وتقبيلها نيابة عن أبيها.

الفكرة

للحيرة لهيب حارق في الأكباد، أيكون (خالد) أبًا ورحِمًا يمنح المحرومة (حياة) ما افتقدته من حنان الأبوة؟ أم يكون حبيبًا يمنح نفسه ما افتقده وهو المنقطع عن جذوره ووطنه وتاريخه؟

النص - صفحة 43

"أنتِ التي تعلقتِ بي لتكتشفي ما تجهلينه، وأنا الذي تعلقتُ بك لأنسى ما كنتُ أعرفه .. أكان ممكنًا لحبنا أن يدوم؟".

السياق

تعلقت (حياة) بـ(خالد) وكان غايتها أن تعرف الكثير عن حياة أبيها (سي طاهر)، عن تفاصيل لم تدون في السِّير والمذكرات، عن تاريخه كأبٍ لا كقائد، بينما (خالد) يعيش اللحظة العاطفية ويرى نفسه التائه المأسور فيها.

الفكرة

تختلف الغايات في النفس والحسِّ، هي تبحث عما افتقدته من يوميات أبيها الذي ملأ سمع الدنيا وبصرها، وهو يريد لها أن تنسى، تنازع يستنفد طاقات الروح والجسد؟ ترى مَن سيصل إلى الغاية التي يريدها أولًا؟

النص - صفحة 46

"وأنا أجهد نفسي في الوقت نفسه حتى لا أسرق منه تلك الساعات القليلة النادرة، التي كان يغامر بحياته ليقضيها برفقة عائلته الصغيرة".

"كنت أندهش وقتها، وأنا أكتشف فيه رجلاً آخر لا أعرفه".

السياق

يتحدث (خالد) عن قائده (سي طاهر) حين غامر بالمجيء من ميدان المعارك في الجزائر إلى تونس ليزور عائلته.

الفكرة

أن تهاب قائدًا عسكريًا بحجم (سي طاهر)، وتكتشف بساطته وعواطفه تجاه عائلته، فهذا يخلد مكانة القائد في ضمير الأتباع والجنود، تتجسد الصورة من زوايا متعددة وأبعاد متوازنة، ومِن هنا يتشكل مفهوم القدوة.

النص - صفحة 48

"وأين أنا في قائمة عشقك وضحاياك".

السياق

في نهاية الفصل الأول تتحدث الكاتبة على لسان خالد عما ينوي كتابته في روايته هذه، عن (قسنطينة) التي ابتعد عنها ثم عاد إليها ليدفن شقيقه، وعن (حياة) التي تخلت عنه وذهبت إلى غيره ولم تبالِ!!

الفكرة

عندما يتحول الحب إلى كراهية وانتقام، هكذا يقرر أن ينتقم منها، يؤكد كرهه لها، قال: أريد لموتها وقعًا جديدًا من خلال ما سأكتب، ماذا لو كانت الروايات بنادق محشوة بالكلمات .. لو كانت الكلمات رصاصًا أيضًا. سينتقل السرد إلى الفصول التالية بأعصابٍ متوترة .. المداد وقود، والريشة عود ثقاب مشتعل.

النص - صفحة 51

"يومها كنتُ أنا الرَّسام، وكنتِ أنت زائرة فضوليّة على أكثر مِن صعيد".

"لم تكوني فتاة تعشق الرَّسم على وجه التحديد، ولا كنتُ أنا رجلاً يشعر بضعفٍ تجاه الفتيات اللاتي يصغرنه عمرًا، فما الذي قاد خطاك هناك ذلك اليوم؟".

السياق

يتحدث (خالد) عن تلك الصدفة التي جمعته في معرض رسومه بفتاتين، كانت إحداهما (حياة) ابنة قائده (سي طاهر) وكان آخر مرة رآها فيه وهي طفلة عام (**١٩٦٢**م) وهذا عام (**١٩٨٢**م)، كان لقاء المفاجأة والدَّهشة.

الفكرة

(خالد) مزهو بنجاح معرض الرسوم الخاص بلوحاته في باريس، الزِّحام وعبارات المديح والإعجاب، يكتمل الزَّهو النَّفسي بمفاجأة لم تكن على البال، هذه ابنة القائد (سي طاهر)، هذه (قسنطينة) بل الجزائر كلها.

النص - صفحة 54

"في الحقيقة .. أنا لا أفهم كثيرًا في الرَّسم، ولم أزر إلَّا نادرًا معارض فنيّة".

السياق

هذه عبارة قالتها (حياة)، أثناء تعرفها على خالد، قالت إنها كاتبة وليست رسامة.

الفكرة

أجادت الكاتبة تجسيد الثُّنائية المتعاكسة (التمازج والتَّضاد) بين موهبتي الرَّسم والكتابة، صنعت لهما مساحة نفسية هائلة تتصارع فيها الألوان والكلمات، الرِّيشة والقلم، الرغبات والهواجس.

النص - صفحة 55

"كنتُ أشعر أنك أنتِ .. لا تلك".

"أو هكذا كنتُ أتمنى، وأنا أحلم قبل الأوان بِقرابةٍ ما تكون جمعتني بك".

السياق

عندما أدرك (خالد) أنَّ الفتاتين من عائلة (عبدالمولى) ظل يخمن مَن تكون منهما ابنة (سي طاهر)؟

الفكرة

ظل يحاور نفسه أيُّهما تكون، مع يقينه المُسبق مَن التي تكون! يقارب الحسَّ بين ملامح الطفولة القديمة وتقاسيم الوجه الماثل أمامه بكل جماله وأنوثته وملاحته المستوية.

النص - صفحة 58

"خطر ببالي كل ذلك، وأنا أحاول بدوري أن أتأقلم مع كل المفاجآت والانفعالات التي هزتني في بضع لحظات".

السياق

تحقق الاسم والصورة، هذه (حياة) بنت القائد (سي طاهر) التي سجلها خالد يومًا باسم (أحلام)، لكنها وعائلتها تمسكت باسمها القديم.

الفكرة

لحظات مِن التعارف الذي لم يكن مقررًا، لحظة لقاءٍ عابر يفتح لـ(خالد) مصاريع الذِّكريات بحلوها ومرِّها، حينها قال يخاطب نفسه: وددتُ أن أسلم على فتاة جميلة تزور المعرض، فإذا بي أسلم على ذاكرتي!!

النص - صفحة 62

"رحتُ يومها أتأمل تلك الجدران على غير عادتي، وأنا أفكر في كل ما يمكن أن أعلق عليه مِن لوحات بعد اليوم، كل وجوه مَن أحب، كل الأزقة التي أُحب، كل ما تركته خلفي هناك".

السياق

نصح الطبيب خالداً بعد أن بُترت ذراعه ألا يسمح للهزيمة بأن تستولي عليه، عليه أن يعيد علاقته مع العالم مِن خلال إجادة فنٍ من الفنون .. فتردد في اختيار الرَّسم أو الكتابة، فاختار الرسم، ومن هذه الواقعة بدأ رحلته في عالم الرسم.

الفكرة

ذراعٌ واحدة في جسد متكامل، موهبة فريدة تنتصر على بقية المواهب، قرر أن يحتفظ بكل ما يحب في لوحة رسم، في لون وإضاءة وظلال، في تعاريج الخطوط وهي تنحني بانحناء الشعور النفسي والوجداني، أما الأشكال ففي الذَّاكرة لا تغيب .. قسنطينة، الثورة، باريس.

النص - صفحة 62

"نُمتُ في تلك الليلة قلقًا، وربما لم أنم! كان صوت ذلك الطَّبيب .. يودعني وهو يشدُّ على يدي (ارسم) .. فتعبر قشعريرة غامضة جسدي وأنا أتذكر في غفوتي أول سورة مِن القرآن".

"كدت أصرخ وأنا أتذكر فراش طفولتي، وتلك البطانيّة الصُّوفية التي كانت غطائي في مواسم البرد القسنطيني، كدتُ أصرخ في ليل غربتي: دثريني (قسنطينة) .. دثِّريني".

السياق

يتذكر خالد تلك الليلة الشَّتوية الباردة، بعد آخر لقاء بالطَّبيب (اليوغسلافي) الذي بتر ذراعه، وأعاد تأهيله العقلي والنفسي، أقنعه .. ارسم يا (خالد) لتبقى علاقتك بالعالم قائمة لا تنقطع.

الفكرة

قشعريرة ورجفة برد وتوتر .. يتولد عنها موهبة جديدة في تلك الليلة البعيدة، كانت أوهام في غفوة نوم يتردد .. قصة من وحي البعث الأول .. هذا خيال الكاتب .. قفزٌ بلا حدٍّ ولا مدٍّ، هواجس نفس كبراق ريح يركض فوق الحواجز والحدود.

النص - صفحة 63

"لوحة لشاب في السابعة والعشرين من عمره، كان أنا بغربته وبحزنه وبقهره".

"وها أنا اليومَ، في غربة أخرى وبحزن وقهر آخر، ولكن بربع قرن إضافي".

"ها أنا اليوم أحد كبار الرَّسامين الجزائريين".

"ها أنا اليوم .. نبيٌّ صغير نزل عليه الوحي ذات خريف في غرفة صغيرة بائسة في شارع باب سويقة بتونس".

"ها أنا نبيٌّ خارج وطنه كالعادة".

"ها أنا ظاهرة فنية .. كيف لا!! وقدر ذي العاهة أن يكون ظاهرة وأن يكون جبارًا ولو بفنه".

السياق

يتذكر (خالد) رسمته الأولى (حنين) لجسر قنطرة الحبال بـ(قسنطينة)، رسمها وعمره سبع وعشرون، سنة **١٩٥٧**م،

وعمره اليوم اثنان وخمسون، سنة **١٩٨٢**م، ها قد أصبح رسامًا يشار إليه بالبنان، دخل غربة الألوان، ووجع الذاكرة، وحنين الماضي، وقهر الحاضر، ولم يخرج حتى الآن.

الفكرة

(حنين) رسم لجسر (قنطرة الحبال) هذه اللوحة شاركت بطل الرِّواية كل معاركه النَّفسية مع الذَّاكرة والتاريخ والجغرافيا، ظلت لأكثر مِن خمسين عامًا نافذة اتصال وتواصل بين الرُّوح والوطن، بين الذي كان وما هو كائن، بين معطوب قهر عاهة الجسد ليصبح رسامًا شهيرًا؛ فجاءت رسومه لتكون مصدر أحزانه وعذابه.

النص - صفحة 64

"ها أنا ذا .. فأين ذلك الطَّبيب الذي نصحني بالرسم ذات مرة؟ وها هي (حنين) لوحتي الأولى، وجوار تاريخ رسمها

(تونس ٥٧)".

"وتاريخ ميلادك الجديد، ذات خريف من سنة **١٩٥٧**م، وأنا أسجلك في دار البلديّة لأوَّل مرة".

"مَن منكما طفلتي .. ومَن منكما حبيبتي؟ سؤال لم يخطر على بالي ذلك اليوم، وأنا أراك تقفين أمام تلك اللوحة لأوَّل مرة".

السياق

في زيارة (حياة) لمعرض (خالد) للرسوم – باريس عام **١٩٨٢**م – اكتشف الأخير هويتها، وقادها بين لوحاته، وقفت بإعجاب أمام لوحة (حنين) التي رسمها في نفس العام الذي سجل اسمها في دار البلدية سنة **١٩٥٧**م.

الفكرة

لوحة وطفلة، جسر معلق في الهواء، ورسمة معلقة في جدار .. الطفلة لم تعد طفلة .. والرَّسام تعالى على الجراح، وتفتحت فيه مزاهر الأحلام.

إذا به على موعد يجمع التَّواريخ والمصادفات، الذَّاكرة تصرخ مِن ثقبها .. تصرخ بأسئلتها ولا جواب!

النص - صفحة 66

"كيف أشرح لكِ في لحظات أنَّني أعرف الكثير عنك، أنا الرَّجل الذي تقابلينه لأول مرة".

السياق

زحمة المعرض لم تسمح لـ(خالد) أن يشرح لـ(حياة) كل ما يعرفه عنها، وعن والدها القائد (سي طاهر)، وأنَّه مَن سجلها باسم (أحلام) في مركز البلدية وهي طفلة رضيعة.

الفكرة

الذَّاكرة تجهش بالبكاء وهي تلتقي بماضيها وتاريخها الأول، بوطنها الذي تغير، مقارنة نفسية على هامش لوحة الجسر "حنين"، ما عسى تصنع لحظة زمنية عابرة في لقاء مفتوح مع الذَّاكرة؟!

النص - صفحة 67

"ربع ساعة من الحديث أو أكثر، تحدَّثتُ فيها أنا أكثر مما تحدثتِ أنتِ".

"كنتُ سعيدًا وأنا أكتشف شغفك بالفن، كنتِ على استعداد لمناقشتي طويلاً في كل لوحة".

"وأما أنا فكنت لحظتها لا أرغب سوى في الحديث عنك، وحده وجودك كان يثير شهيتي للكلام".

السياق

يواصل (خالد) وصف لقائه المفاجئ بـ(حياة)، يصفه بتعبير تختلط فيه ومضة الحنين إلى الماضي بلمعة التطلع في الحاضر، لقاء مدهش .. عاد به إلى ذكرياته القديمة وزمانه الأول.

الفكرة

إذا صادف الإنسان شيئًا جميلاً مفرطًا في الجمال، تدفعه المصادفة إلى البكاء، كما قال (خالد). في تلك اللحظة يتشوق الوجدان واللسان للحديث في هذا الإطار وحده، لقد وجد ذاكرته المنسية، يتوق إلى الحديث معها طويلاً، وجد (سي طاهر، أمَّه، وربما وجد المحبوبة، ووجد الوطن، ووجد ما كان يبحث عنه).

النص - صفحة 68

"أدركتُ أنني نجحتُ في أول امتحان معك، وأنا أجعلك تفكرين في لقائي مرة ثانية".

"سأكون هنا بعد الظهر .. ثم أضفتُ وأنا أكتشف أن جوابي قد لا يشجعك على زيارة قد أكون غائبًا عنها: مِن الأرجح أن أكون هنا كل يوم".

"قد أعود لزيارة المعرض يوم الاثنين القادم، إنَّه اليوم الذي لا دروس لي فيه .. في الحقيقة أنا حضرت اليوم عن فضول فقط".

السياق

انتهى لقاء (خالد) بـ(حياة) على هامش معرض الرسوم في باريس، كان التقاء إنسان بذاكرته بعد عقود مِن الفرقة والبُعاد .. ترى ماذا عن اللقاءات التالية؟

الفكرة

يصادفك لقاء لم تكن تتوقعه أو تحلم به، وعندما تدرك أنَّ الوقت أوشك على الانتهاء ستجعل الدَّقائق الأخيرة منصبة ولو نفسيًا لترتيب لقاء قادم، وترجو ألا يفوتك.

النص - صفحة 69

"تدخلت ابنة عمّك، وكأنها تعتذر .. لن يمكنني أن أُرافقكِ، ولكن قد أعود أنا أيضًا في يوم آخر".

السياق

تعتذر ابنة عم (حياة) بعدم زيارتها للمعرض الاثنين القادم، وقد تأتي في يوم آخر.

الفكرة

رغبة النفس بلقاء انفرادي مع (المحبوبة، الذاكرة، الوطن، ..) على شكل لقاء بـ(حياة)، صنعت الكاتبة عراقيل جميلة للمواعيد العاطفية؛ ثم أخذت تزيحها بأناقة؛ لتكتمل الفرحة بحلم اللقاءات القادمة.

النص - صفحة 70

"كانت الأيام الفاصلة بين يوم الجمعة ويوم الاثنين تبدو طويلة .. ثم أعود وأختصر الجمعة الذي كان على وشك أن ينتهي، والاثنين الذي سأراك فيه، فتبدو لي المسافة أقصر وأبدو أنا أقدر على التحمل".

"ثم أعود فأعد الليالي فتبدو ثلاث ليال كاملة .. أتساءل وأنا أتوقع مسبقًا طولها، كيف سأقضيها؟".

السياق

ظل خالد يعد الأيام والساعات التي ينبغي أن تمضي سريعة ليتم له اللقاء بـ(حياة) في المعرض كما اتفقا.

الفكرة

حددت الكاتبة على لسان بطلها (خالد) موعد اللقاء التالي أربعة أيام من الجمعة إلى الاثنين، وجعلت الفترة مادة حرب نفسية في إطار الزمن، الزمن هو المكان والميدان الذي قامت فيه حروب خالد بكل خيالاتها وانفعالها، كل ساعة تمضي وكل يوم يمضي هو معركة ضروس، معركة طرفها الأول خالد، وطرفها الثاني اللا شيء.

النص - صفحة 71

"في ذلك اليوم، سعدت وأنا أرى (كاترين) تدخل القاعة".

السياق

(كاترين) صديقة فرنسية لـ(خالد)، صداقة (خالد – كاترين) اتسمت بالفوضى والحرية العبثية، علاقة بلا قيود .. علاقة بشرعية الجنون والتمرد على التاريخ والقيم والذاكرة.

الفكرة

جعلت الكاتبة من شخصية (كاترين) رمزًا للعلاقة بالآخر الغربي، وعلى العكس مما هو سائد في واقع العلاقات الحضارية .. فهذه العلاقة لم تكن عدائية، اتسمت بالعشق والذوبان، حتى أن (خالد) في نهاية الرواية أهدى (كاترين) جميع لوحاته المرسومة.

النص - صفحة 74

"ها أنا ذا في هذه القاعة إذن .. وها هو ذا جنوني معلق للفرجة على الجدران".

"كدتُ أجيبها وأنا أواصل فكرة سابقة".

السياق

ما يزال (خالد) في قاعة المعرض بعد مغادرة (حياة) ومجيء (كاترين)، مقارنة الحب الموضوعي الموصول بذاكرة الحضارة وجذورها التاريخية، وبين الحب الطارئ المستند إلى البحث عن فرصة لإشباع الرغبة والجوع والفراغ.

الفكرة

في قاعة واحدة، تلك تغادر وهذه تأتي، وأنت يا خالد معلقُ بين وجهتين .. طارئ غربي بكل مغرياته وتأنقه وملذاته، وذاتي شرقي بكل جماله وذكرياته وأشواقه.

العقل والروح .. شتات النفس .. ومحنة الضياع .. وتعاكس الطرقات!

النص - صفحة 75

"متى ستعاملني أخيرًا كلوحة .. قلتُ وأنا أضحك لسرعة بداهتها .. هذا المساء".

"أنا متعبة بعض الشيء".

السياق

(كاترين) تطلب من (خالد) أن يعاملها كلوحة، طلبت ذلك وهي تشاهد مستوى الاهتمام والعناية بالرسوم المعلقة في المعرض.

الفكرة

الحضارة الغربية متخمة بالفنون والأضواء وصور المجون الساحرة .. الأنثى دائمة البحث عما تريد .. تبحث عن اللذة أينما وجدت؛ وإن كانت في كلوحة .. تقاسمها العشق والجنون كما تقاسمها الخطوط والألوان، وهذا الإشعاع الماجن الرخو يتمدد خارج أرضه وديارة.

النص - صفحة 76

"قلتُ وأنا أداعبها .. كان في ذهني مشروع لوحة".

السياق

خالد يخاطب (كاترين) بحسب ما تعتقد هي أنه اهتمام بها.

الفكرة

(خالد) يتمسك برمزية الفنون كشرعية ذاتية في علاقته بالأنثى (كاترين)، وهو متيقن بأنها علاقة خارج أسوار الذَّاكرة .. إنَّه يبحث عن علاقة وطيدة داخل سياج الذَّاكرة.

النص - صفحة 79

"اتجهتُ نحو لوحتي الصَّغيرة (حنين) أتفقدها وكأنني أتفقدك".

"إننا نفهم بعضنا .. أنا وهذه اللوحة".

السياق

صباح يوم الاثنين كان (خالد) يتجول في المعرض ويتفقد لوحاته، وينتظر مجيء (حياة).

الفكرة

حنين: لوحة لقنطرة الحبال بقسنطينة، تمثل أهم رمز في فكرة التواصل مع جغرافيا الوطن، هذه اللوحة .. وتلك (حياة) الغائبة .. لم تأتِ هذا اليوم! تركتني مثل حفَّار ينقب في دهاليز الذِّاكرة، يستخرج مدفونات بالية من بقايا أفراح ذابلة، وأشواق كسيرة.

النص - صفحة 79

"نهضت إليه مسلمًا وأنا أخفي عنه دهشتي".

السياق

كان (خالد) ينتظر قدوم (حياة) فإذا به يستقبل عمها (سي شريف)!!

الفكرة

مَن تنتظر؟ مَن الذي جاء؟ تختلف طبيعة الاستقبال والسلام والمقابلة، في كل حالة مشابهة تتبدل في الأعماق طريقة الاستقبال دون الحاجة إلى تعديل الرتابة الشكلية على الوجه والحواس.

النص - صفحة 80

"لم يحدث أن شعرت بسعادة وأنا أسلم عليه مثل تلك المرة".

"صحت وأنا أنتقل من دهشة إلى أخرى!! أهلاً (سي مصطفى)".

"أنا هنا منذ سنتين وعنواني معروف عندك".

السياق

حضر إلى المعرض (سي شريف) عمّ (حياة) وبصحبته (سي مصطفى)، ولم تحضر (حياة).

(سي مصطفى) صديق قديم لـ(خالد) ورفيقه في الحرب والجراح والانتقال إلى تونس، هو اليوم هامور كبير في دنيا الفساد، واحدٌ ممن استثمروا مشاركتهم في حروب التحرير لمصالحهم الشخصية؛ فأصبحوا أسوأ من المستعمر.

الفكرة

كان خالد ينتظر (حياة) لعلها النقطة المضيئة في ذاكرته المعتمة، فجاء عمها وصديقه وهما نقطتان مظلمتان في دهاليز الذَّاكرة.

(سي شريف) شقيق (سي طاهر) يستخدم اسمه بذكاء، وهذا (سي مصطفي) ذراع طويلة لعصابات النهب المنظم، وفي كل الأحوال .. الاستقبال واجب، والمجاملات ضرورة.

النص - صفحة 82

"تلك المصادفة التي جعلت الممرضة في تونس تعطيني وأنا أغادر المستشفى ثيابه".

"وربما كنت كذلك وأنا على أبواب المنفى أن أُنهي علاقاتي بتلك البطاقة".

"يومها دهش (سي مصطفى) وأنا أُخرج من جيب سترتي تلك البطاقة وأضعها أمامه .. أهو الذي ارتبك .. أم أنا؟".

"شعرتُ فجأة وأنا أنفصل عنها، أنني أعطيته شيئًا كان ملتصقًا بصدري، شيئًا مني، ربما ذراعي الأخرى، أو أي شيء كان لي، كان أنا".

السياق

عندما غادر (خالد) المستشفى في تونس سنة **١٩٥٧**م، أعطته الممرضة ثياب صديقه (سي مصطفى) والتي جفَّ عليها الدم منذ أيام وبداخلها بطاقته التعريفية، بعد ستة عشر عامًا أي سنة **١٩٧٣**م، كان (سي مصطفى) قد تحول من مجاهد إلى لص باسم

التحرير، يومها كان (خالد) قد قرر الخروج إلى المنفى، فكانت فرصة أن يسلمه بطاقته وكأن شيئًا قال له: احتفظت بها لتواجهه بالذَّاكرة المنسية.

الفكرة

حالة متكررة أن يتحول رجل الثورة والتحرير إلى لص ينهب الثروات باسم النضال، كان (خالد) يتألم لهذا الحال، لا يستطيع فِعل شيء، جاءت مناسبة إعادة البطاقة التعريفية لصاحبها .. ليقول له بلسان الحال: كنتَ يومًا هذا الرجل .. ولم تعد كذلك.

النص - صفحة 83

"وربما كان أكثر سخاءً معي أنا بالذَّات، للأسباب نفسها التي تجعلني اليوم أكثر رفضًا له".

"سعدتُ بعدها وأنا أتخلص منه ومِن (سي الشَّريف) دون أن يأخذا على خاطرهما".

السياق

جاء (سي مصطفى) بصحبة (سي شريف) ليقتني لوحة يتباهى بها أمام رفاقه الكبار، فأهداه (خالد) لوحة (أكواريل) ذات ألوان مائية ليحقق هدفًا يجول في خاطره.

الفكرة

يحاول (خالد) أن يستفز ذاكرة (سي مصطفى) عساه يبعث في نفسه رجل الثورة الذي مات بعد الاستقلال، يوم سلمه بطاقته المفقودة، وهو الآن يهديه لوحة بألوان مائية ليقول له: الدمُّ ليس ماءً.

النص - صفحة 84

"ماذا لو كان حديثكِ عن زيارتك المحتملة مجرد مجاملة، أخذتُها أنا مأخذ الجد!!

فنمتُ وأنا أخطِّط لمبرر هاتفي قد يجمعني بك".

السياق

انقضى يوم الاثنين ولم تحضر (حياة) إلى المعرض، بل كان حضور زائرين ثقيلين فتحا له نافذة من الجراح وسردابًا من الذكريات العصيبة.

الفكرة

تتعلق النفس بموعدٍ جميل، وتشدُّ إليه رحال السَّمع والبصر والفؤاد، ثم لا يلتقي الموعود بالواعد، عندها تتكدر النفس، تحاول البحث عن مبررات لضمان موعد آخر.

النص - صفحة 86

"أنا لم أحضر البارحة، لأنني سمعتُ عمّي يتحدث لشخص على الهاتف ويتفق معه على زيارتك".

"أجبتكِ وأنا أتأملكِ بسعادة مَن يرى نجمه الهارب".

السياق

بررت (حياة) عدم حضورها بالأمس أنها تتحرج من لقاء عمها وصديقه في المعرض وهو يعرف زيارتها السابقة.

الفكرة

ما نحسه هروبًا وعزوفًا في نفوسنا، نجده عند الآخر منطقيًا ومعقولًا، ضيق الأمس تداويه معاذير اليوم حتى وإن فات وقته وزمانه.

النص - صفحة 87

"أما أنا فمشكلتي أنني أنسى .. أنسى كل شيء".

"أمَّا أنا فأكره الاحتمالات".

السياق

لقاء ثانٍ بين (خالد) و(حياة) في معرض الرسوم، هي لم تنسَ الموعد رغم أنها تنسى كل شيء .. (بطاقة المترو، المفاتيح،..)، أمَّا (خالد) لا ينسى في الغالب، لكنه يكره الاحتمالات ويوقن بالجزم في كل شيء.

الفكرة

وصفْ الكاتبةُ لـ(حياة) بأنها تنسى كل شيء يهدف إلى ربط هذا الوصف بنسيان الذَّاكرة للوطن والنضال والمناضلين، ووصفها لـ(خالد) بأنه يكره الاحتمالات لتجعل منه شاهدًا على تقلب الأحوال وتنكر الثوار لمبادئ الثورة، القضايا الحاسمة ليس فيها احتمالات.

النص - صفحة 89

"لقد توفيت منذ أربع سنوات، وبعد وفاتها انتقلتْ أمي لتعيش مع أخي (ناصر) في العاصمة، وجئتُ أنا إلى باريس لمتابعة دراستي".

"رحمها الله .. لقد كنتُ أنا أيضًا أحبّها كثيرًا".

"أتدري أنني أحبُ طريقتك في الرَّسم؟ أنا لا أقول لك هذا مجاملة".

السياق

سأل (خالد) عن (أمَّا الزهرة) وهي أم (سي طاهر وشريف)، وكان متعلقًا بها كأمه؛ فقد كانت تحن عليه وتواسيه، ماتت منذ أربع سنوات، ترحم عليها، وعادا للحديث عن الرَّسم والكتابة وما يجول في الخاطر.

الفكرة

في كل لقاء جديد يتناول الجالسون تفاصيل أكثر دقة حول كل شيء يطفو على سطح الذَّاكرة، العائلة، الوطن، الأصدقاء، الأحداث ... الأحلام والهويات والأماني، تكون المجاملة سيّد الجلسة حتى وإنَّ نفى أحدهما صفة المجاملة عن نفسه، يتشعب الحديث وما أسرع ما يعود المتحدثان إلى ما تنطوي عليه النفس مِن شوق ورغبة.

النص - صفحة 90

"وهل ترسمين؟ قلتِ: لا أنا أكتب".

"سألتكِ وأنا أتنقل مِن دهشة إلى أخرى: وبأي لغة تكتبين؟ .. قلتِ: بالعربية".

السياق

يستمر الحوار في معرض الرَّسم، يكتشف(خالد) أن (حياة) تجيد كتابة القصص والرِّوايات، وقد نشرت إحدى رواياتها قبل سنتين.

الفكرة

جعلتْ الكاتبة فني (الرَّسم والكتابة) محورين أساسيين في حركة الرواية، وزاويتين مضيئتين في مسارها المتعدد، الأول يوثق للذَّاكرة شكلاً مرسومًا، والثاني يكتب لها أدبًا مرموقًا، الرَّسم والكتابة جناحان يطيران بالعقل إلى مناهل الوعي الصافي؛ ليستزيد علمًا ومعرفة ووعيًا.

النص - صفحة 91

"رحتُ أتأمّلكِ مدهوشًا، وأنا أحاول أن أضع شيئًا مِن التَّرتيب في أفكاري".

السياق

هكذا يصف (خالد) لقاء .(حياة)، يقول أنَّه بلقائها صادف كل قناعاته الثابتة وأحلامه الوطنية الأولى، فهو يحاول أن يرتب أفكاره في مثل هذه المصادفات الجميلة.

الفكرة

يحاول (خالد) أن يتجاوز ضجيج العواطف الداخلية ويذهب في حديثه إلى فضاء أكثر أهمية وأبعد غاية .. العربية الشامخة، الوطن الجريح، الذَّاكرة السجينة .. قضايا جامعة، مثَّلت روحًا مشتركة تتوسط روحين، توحد ما تفرق، وتجمع ما تمزق.

النص - صفحة 92

"وكنتُ أرتكب لحظتها أجمل الحماقات، وأنا أجعل تلك اللّغة التي كان لي معها أكثر من صلة عشقيّة، طرفًا آخر في قضيتنا المعقدة".

"في الحقيقة أنا لا أرسم الوجوه التي أحبها حقًّا، أرسم شيئًا يوحي بها".

السياق

اتفق (خالد) و(حياة) أن يتحدثا بالعربية بدلًا عن الفرنسية، وعندما سألته أنها لا ترى رسومًا كثيرة لوجوه وأشخاص، قال (خالد) أنه يضيق بالمساحات الصَّغيرة ويبحث عن طرق أخرى للتعبير عمَّا يريد.

الفكرة

اللغة العربية شريك أبدي في كل حوار وجودي، العربية الفصحى أجمل لسان يُعبِّر عمّا يختلج في النَّفوس، أليست لغتنا المجيدة ترجمان الخفايا الروحية، ورسول المشاعر النبيلة.

النص - صفحة 94

"كنت أنا أفكر مدهوشًا في قدرة هؤلاء على رسم جسد امرأة بحياد جنسي".

السياق

في حصة التمرين بمدرسة الفنون الجميلة، كان الدَّارسون يرسمون خفايا الجسد العاري بشهية وجنون، واكتفى (خالد) برسم الوجه فقط.

الفكرة

يحاول (خالد) توثيق انتمائه الشرقي المحافظ، كهوية تمنح صاحبها جلال القيم الفاضلة، وجمال المكارم العالية، هذا ما أقر به (خالد) قبل أن يتغرب، قبل أن يستحدث فجوة بينه وبين ذاكرته.

النص - صفحة 95

"ولكنني أنا أنتمي لمجتمع لم يدخل الكهرباء بعد إلى دهاليز نفسه".

السياق

يبرهن (خالد) على تمسكه الشَّرقي بمثال جميل المعنى، وقريب إلى الذِّهن؛ رغم تغربه الواضح بحكم البقاء على الضفة الشمالية ثقافةً وفكرًا وسلوكًا.

الفكرة

دخول الكهرباء إلى دهاليز النَّفس يحمل معنيين متضادين: الإنارة والشروق، أو الجحيم والحروق.

النص - صفحة 96

"أذكر أنني قلتُ وأنا أودعك عند باب القاعة: لا تنسي كتابك غدًا .. أُريد أن أقرأك".

السياق

ودع (خالد) (حياة) عند باب المعرض، وطلب منها إحضار روايتها في زيارتها القادمة.

الفكرة

لا تنسي كتابكِ غدًا .. أريد أن أقرأكِ .. أفضل طريقة لمعرفة الآخر أن تقرأ أفكاره، وتستوعب خياله، أن تكتشف اهتماماته من خلال سطورهِ المكتوبة، عندها ستكتشف مقدار المسافة بينكما.

النص - صفحة 97

"أتأملكُ تندمجين بخطى الهارة وتختفين مرة أخرى كنجمٍ هاربٍ .. وأنا أتساءل بشيءٍ مِن الذُّهول .. ترانا التقينا حقًا .. التقينا إذًا".

"وحدثت الهزة الأرضية التي لم تك متوقعة، فقد كان أحدنا بركانًا، وكنتُ أنا الضحية".

السياق

ظل (خالد) يتابع خطى (حياة) حتى غابت وسط الهارة وغادر كيانها عينيه الراكضتين في إثرها.

الفكرة

بعد لقاء كهذا تتوافد الخواطر النَّفسية، ها قد تم اللقاء .. (خالد) يعيد مع نفسه ما قال وما سمع وما فاته مما كان ينبغي ألا يفوته، تجسيد شعوري للطبيعة البشرية: وحدها الجبال لا تلتقي إلَّا في الهزات والزَّلازل، بركانٌ وضحية، آه يا امرأة تحترف الحرائق!!

النص - صفحة 100

"ربع قرنٍ على أول لقاء بين رجلٍ كان أنا، وطفلة تلعب على ركبتي كنتِ أنت".

"أنا الرَّجل المعطوب الذي ترك في المعارك المنسية ذراعه، وفي المحن المغلقة قلبه".

"كنتُ أتساءل كل مرة وأنا أُودعك مرددًا تلقائيًا "إلى الغد" ترانا نرتكب الحماقات ويزداد تعلقنا ببعض كل يوم".

السياق

تتابعت زيارات (حياة) و(خالد)، تداخل الحديث العاطفي بالشغف الثقافي والتحليل السياسي، استعاد الاثنان ذكريات بعيدة، وأحلام آتية.

الفكرة

الرَّجل المعطوب الذي ترك ذراعه في المعارك المنسية، يستجمع ذاكرته مِن خلال امرأة كانت يومها طفلة بريئة وهي اليوم أنثى مكتملة، معاق كسير النفس فقد ذراعه، ثم غيبه البُعد عن وطنه .. هل يستعيد ما بُتر منه ولو بالحلم والأماني؟

النص - صفحة 101

"وكنتُ أشعر وأنا أنحدر معك إلى تلك المتاهة العميقة داخلي .. أنني أنزل أيضًا سلَّم القيم تدريجيًا".

"تراني كنت أخون الماضي، وأنا أنفرد بك في جلسة شبه بريئة في قاعة تؤثثها اللوحات والذَّاكرة؟".

السياق

(خالد) و(حياة) في لقاءاتهم المستمرة، لكل واحد منهما غرضٌ وغاية، وتبعًا لتلك الغايات تختلف تأويلات الحديث والحركات والنظرات!

الفكرة

القيم الدِّينية والجذور الثقافية تفرض تأثيرها على تفكير الإنسان وسلوكه ولو بعد حين، يشعر (خالد) بذاته الداخلية، يدري إن كان يرتقي أو أنَّه ينحدر، يدرك مدى تمسكه بالقيم أو انسلاخه عنها، قد تداهم الإنسان حالةٌ من الضعف الشيطاني، ومع ذلك يبقى في ضميره الخفي شعور بالحاجة إلى الانتماء القيمي، يبقى في عالمه الدفين جرسٌ يدوي عند الخطر.

النص - صفحة 102

"أيمكن أن أفعل كل ذلك باسم الماضي، وأنا أُحدثك عن الماضي!".

"كنا نكتشف بصمتٍ أننا نتكامل بطريقة مخيفة، كنتُ أنا الماضي الذي تجهلينه، وكنتِ أنت الحاضر الذي لا ذاكرة له".

"كنتِ فارغة كإسفنجة، وكنتُ أنا عميقًا ومثقلاً كبحر".

السياق

هكذا يفلسف (خالد) لقاءه بـ(حياة)، لقاء ماضٍ مجهول بحاضرٍ لا ذاكرة له، كل هذه الحوارات تتم من خلال لقاءاتهما في معرض الفنون، وفي هذا الفضاء الحسي والنفسي.

الفكرة

يلخص (خالد) الفكرة هنا بقوله: كان جرحي واضحًا وجرحك عميقًا، لقد بتروا ذراعي وبتروا طفولتك، اقتلعوا مِن جسدي عضوًا .. وأخذوا مِن أحضانك أبًا .. كنا أشلاء حرب .. وتمثالين محطمين داخل أثوابٍ أنيقة لا غير.

النص - صفحة 105

"كنتِ تشبهينني أنا الذي كنتُ أرسم بيدٍ لأستعيد يدي الأخرى، كنتُ أفضل لو بقيتُ رجلاً عاديًا بذراعين اثنين".

السياق

سردتْ (حياة) لـ(خالد) مأساة عائلتها بعد استشهاد والدها (سي طاهر)، برغم التمجيد المستمر لنضالات الثوار والشهداء إلا أنهم منسيون وخارج دائرة الاهتمام، وشرح لها (خالد) مأساته ليخفف معاناتها.

الفكرة

المأساة واحدة وإن تعددت صورها وأشكالها، الأبطال يدفعون ضريبة باهظة فيرتقون شهداء عند الله وأبطالًا في عيون الناس، ومنهم مَن يبقى حيًا يكابد ضرورات الحياة؛ الكارثة وأم المآسي أن يتنكر لأولئك الأبطال هؤلاء الجاثمون على المناصب وعلى خيرات الوطن.

النص - صفحة 107

"وكانت أمّي تبكي بصمت وهي تحاول تهدئتها، وكنتُ أنا أتفرج عليهما وأبكي دون أن أفهم تمامًا أنني أبكي رجلاً لم أره سوى مرَّات .. رجلاً كان أبي".

السياق

تتذكر (حياة) يوم استشهد والدها (سي طاهر) سنة **١٩٦٢**م، كانت جدتها (أمَّا الزهرة) تشهق بالبكاء، وأُمّها تبكي بصمت، أما هي فتبكي دون أن تفهم لماذا تبكي.

الفكرة

لم يكن اللقاء حميمي العاطفة فقط، كان نبشًا في يوميات البكاء والألم، ذكرى الفراق والموت والرَّحيل الدَّامي، ذكرى (سي طاهر) والجدة (أمّا الزهرة) والحرب والاستقلال والتَّردي الفظيع.

النص - صفحة 108

"سألتكِ وأنا أهرب مِن تلك الذِّكريات هربي من خدوش طفولتي البعيدة .. وأمك؟ إنك لم تحدثيني عنها أبدًا، كيف عاشت بعد وفاة (سي طاهر)؟".

السياق

تواصل (حياة) استذكار مأساتها بعد استشهاد والدها (سي طاهر)، وتجيب عن أسئلة (خالد) عن أحوال العائلة بعد مغادرته (قسنطينة).

الفكرة

المأساة تلقي بظلالها الحزين على جو اللقاء، (الجدة) .. لم تفرح بيوم الاستقلال لإن ابنها لن يعود أصلاً، الزوجة تحيطها المخاوف مِن يوم زواجها إلى إعلان استشهاده، وبعد رحيله تحملت مسؤولية العناية بالأبناء، وإبقاء اسم (السي طاهر) حيًّا في سلوكهم ومكانتهم.

النص - صفحة 113

"وقبل أن أتدخل أنا كانت (أمّا الزَّهرة) قد أخذت منك العلبة وذهبتْ بها إلى مكان آخر".

السياق

يحكي (خالد) تفاصيل زيارته لبيت (أمّا الزَّهرة)، كانت (حياة) حينها طفلة صغيرة، كدمية أليفة، تحبو وتتعلق بأي شيء، وجدتها تردها برفق ودلال، فتعلقت أخيرًا بذراع واحدة هي ذراعي، وعجزت أنا عن التقافها بذراعين!!

الفكرة

في اللقاء الأول (١٩٥٧م) تجسدتْ في وجدان (خالد) معاني الأبوّة، وفي اللقاءات الحالية (١٩٨٢م) تختفي تلك المشاعر ليحل مكانها عواطف وأشواق لا علاقة لها بالأبوة.

النص - صفحة 115

"لم تقاطعيني مرّةً واحدة وأنا أقص عليك تلك القصة بإيجاز متعمد، وأترك تفاصيلها المتشعبة لي".

السياق

حين ذهب (خالد) لزيارة عائلة (سي طاهر) سنة **١٩٥٧**م، كان عمره سبعًا وعشرين عامًا، وعمر (حياة) سبعة أشهر، في تلك الزيارة سجل اسمها في دار البلدية نيابة عن والدها، الذي كان مرابطًا في جبهات القتال ولا يستطيع المجيء.

الفكرة

حاول (خالد) ترجمة تلك اللحظة بطابعها الأبوي بعيدًا عن مشاعره الجديدة: رحتُ أُقبلكِ وسط دموعي وفرحتي وألمي وكل تناقضي، نيابة عن (سي طاهر) وعن آخرين .. هم رفاق لم يروا أولادهم منذُ التحقوا بالجبهة، ونيابة عن آخرين ماتوا وهم يحلمون بلحظة بسيطة كهذه، كانوا يعانقون بنادقهم بدل أطفالهم الذين وُلدوا وكبِروا في غفلة عنهم.

النص - صفحة 123

"لأنني لا أريد قتلكَ، أنا سعيدة بكَ .. نحن نكتب الرِّوايات لنقتل الأشخاص الذين أصبح وجودهم عبئًا علينا .. نحن نكتب لننتهي منهم".

السياق

قالت (حياة) أنها معجبة برواية (زوربا) وتصرفاته الجنونية، وقصته مع حبات الكرز والخراب الجميل، وأنها تريد أن تكتب رواية مثلها لكن ذلك غير ممكن .. وأنها لن تكتب عن (خالد) من الأساس؛ لأنها لا تريد أن تقتله بالكتابة عنه.

الفكرة

تحاول الكاتبة أن تجسِّد في شخصية (حياة) تلك المرأة التي لا يعنيها إلَّا نفسها، قد تتنكر لحب إنسان وتستبدله بآخر بكل بساطة، مثلها مثل الثورة الجزائرية التي تنكرت لأبطالها .. ومثل الكثير الذين تنكروا لمبادئهم الثَّورية وسال لعابهم للأموال والمناصب. وها هي (حياة) نموذج لهذه الحالة المتناقضة.

النص - صفحة 124

"عندما أتذكّرها الآن، أقتنع أنَّ قصتكِ الجديدة هذه، التي تروج لها المجلات والجرائد، لن تكون سوى ضريح فردي لبطل واحد ربَّما كان زياد .. وربَّما كان أنا .. فمن ترى المحظوظ منَّا بميتة كهذه".

السياق

توقع (خالد) أن الرِّواية الجديدة لـ(حياة) (منعطف النِّسيان) ما هي إلَّا ضريح للواقعين في شِراك حبها، ثم يتساءل من الضَّحية الجديدة؟ هو، أم صديقه الفلسطيني (زياد الخليل) المقرب إليهما معًا؟

الفكرة

يستوحي (خالد) شكوكه من مقولة سمعها مِن (حياة) نفسها، عندما قالت: إنها تكتب لتقتل أبطالها .. لتتخلص منهم، هل كان الحب والمرأة .. الوطن والذَّاكرة في وجدان (خالد) حدائق خضراء أم أنَّها مقابر بكماء؟!

النص - صفحة 127

"وأنا، بأيّ منطق رحتُ أطالع ذلك الكتاب، في زيٍّ عاشق متنكِّر ببدلة شرطيّ أخلاق".

السياق

يقر (خالد) أنَّه كان يطالع رواية (منعطف النِّسيان) لـ(حياة) بزي عاشقٍ يتنكر في حضرة المحبوبة بزي شرطي يلبس بدلته الأمنية.

الفكرة

شأن العشاق حين يتجاوزن سِن الخمسين أن تكون حياتهم مليئة بالتَّوجس وتقلب النَّظرات، (خالد) يحاول التَّنقيب عمَّا وراء السُّطور، يشتم الصفحات بأنف المُخبر، يتفحص السطور بعيون المحقق، يحلل جرس الكلمات بفطنة الرقيب على الهمسات والنبرات.

النص - صفحة 128

"ولكنَّني أحب أن أقرأكِ، ثم أنا لا أملك طريقة أخرى لفهمك".

السياق

قراءة (خالد) لرواية (حياة) كانت المنعطف الذي غيَّر العلاقة، اكتشف أنَّه ضحية لطموح أنثوي لا يتوقف، أفصحت يومًا عن فكرتها حين قالت: الروائي الناجح .. رجل يكذب بصدق مدهش، أو هو كاذب يقول أشياء حقيقية.

الفكرة

قرأ (خالد) رواية (حياة) بعقلية القارئ الذي يستنطق الكاتبة ولا تعنيه الحروف والسُّطور المكتوبة، من خلال هذه الطريقة اكتشف أنَّ المرأة مثل "براجماتي" تسلق إلى غايته الشَّخصية على جماجم من استغفلهم بالمحبة الخادعة، وعليه التخلص من كل جثة كي يستمر صعوده دون تراجع.

النص - صفحة 129

"كنتُ أتلذذُ بوضعي الجديد ذاك وأنا أتحول من صاحب ذلك المعرض، إلى لوحة مِن لوحاته لا أكثر".

"لم يحدث مثل تلك المرة، أن شعرت بحزن وأنا أرفع تلك اللوحات المعلقة على الجدران".

السياق

كانت الكاتبة قد مضت بأحداث الرِّواية إلى مفترق الطَّريق بين (خالد) و(حياة)، ثم عادت إلى مرحلة كانت قد توقفت عندها، بدأ (خالد) يرفع لوحات المعرض بعد انتهاء مدته.

الفكرة

لازم الشُّعور بنجاح المعرض لدى (خالد) شعورًا آخر يتعلق بالذَّاكرة والماضي، التَّنقيب في كل لوحة عن مناسبة رسمها وتاريخ الانتهاء منها تنقيبٌ في الأحداث ذاتها. جاءت (حياة) هكذا عرضًا .. جاءت لتربط الماضي بالحاضر بالمستقبل .. تُرى .. هل مجيئها ترميم لما تصَّدع مِن جدار الذَّاكرة أم هدم لما تبقى من بنيانها؟

النص - صفحة 130

"ولماذا أنتِ بالذَّات؟ كان مجرد احتمال لقائي بـ(سي شريف) ذات يوم وأنا بصحبتك؟".

السياق

انتهى المعرض، ولم يعد هناك مبررًا للقاء (خالد) بـ(حياة)، أصبحا كما قالت الكاتبة: محاصران بكل مستحيلات الزَّمان والمكان، ملاحقان بكل العيون.

الفكرة

بماذا يبرر (خالد) استمرار تواصله مع (حياة) وهو الرَّجل الخمسيني وبذراع واحدة، و(حياة) في جمالها الرَّبيعي السَّابع والعشرين، هذه الحورية فتحت أمامه كوةً إلى الذَّاكرة التي أغلقها المنفى .. هل يلج منها بكل عواطفه ليشعر بذاته ووجوده؟ أم يدعها تنغلق ثانية؟!

النص - صفحة 131

"أطول نهاية أسبوع على الإطلاق .. يوم الأحد دقَّ الهاتف، أسرعتُ إليه وأنا أراهن أنَّك أنتِ".

السياق

اتفق (خالد) و(حياة) أن يتواصلا على الهاتف متى ما سمحت الظروف بذلك، كان (خالد) لا يرغب بسماع شيء إلَّا رنة الهاتف.

الفكرة

للمشاعر أحكام وعادات، ينتابنا أحيانا شعورٌ بعدم الرَّغبة في محادثة مخلوق لا هاتفيًا ولا شخصيًا، لكن الوضع مختلفٌ هنا .. الأذنُ مستنفرة والجسد مستنفر، ليت كل الأصوات تسكت إلَّا صوت الهاتف .. وكأن (خالد) يخاطب الهاتف: ارفع صوتك بالرنين يا رسول المحبة.

النص - صفحة 133

"كنتُ أشعر بمزيجٍ مِن السَّعادة والإحراج معًا وأنا أستمع إليه، يقصُّ عليَّ بلهجة قسنطينة المحببة".

"لماذا لم تعد ولو مرة واحدة لزيارة (قسنطينة)؟ أنا لا أفهم خوفك!".

السياق

يتحدث (خالد) عن صديقه (روجيه نقاش) الذي غادر (قسنطينة) سنة **١٩٥٩**م، مع فوج من الجالية اليهودية إلى بلدٍ آخر!! وظل يحن إلى (قسنطينة) ولكنه لم يعد إليها.

الفكرة

رأي الكاتبة وهي تخاطب بلدتها (قسنطينة) بكل تنوعها العرقي والدِّيني والثَّقافي، تؤكد رمزية هذه المدينة للمشترك الإنساني، تحث المغادرين منها بالعودة إليها، والمنفيين عنها بالتواصل معها، والساكنين ترابها بالتعايش فيها.

النص - صفحة 136

"كنتُ سعيدًا وأنا أرسم .. ها أنا أطيعه وأرسم اللّوحة نفسها، بالارتباك نفسه".

السياق

كان (خالد) قد قرر تحسين لوحة (حنين) ولكنَّه تنبه أنَّه مِن الأفضل أن يتركها كما هي تاريخًا وذكرى، ويشرع في رسم لوحة مماثلة، يضيف فيها ما استُجد على الجسر العجوز من صخور وممرات سرية ونباتات تبعثرت أسفله مستفيدة من عفونة الأعماق، شرع في رسم لوحته وهو يتذكر ارتباكه الأول، وذلك الطبيب اليوغسلافي (كابوتسكي)، الذي قال له: ارسم.

الفكرة

جسر (قنطرة الحبال) رمز (قسنطينة) الأشهر وتاريخ نضالها الجبَّار، الجسر بارتفاعه - سبعمائة متر - يمثل ارتفاع القيم الوطنية الأصيلة، ومبادئ الكرامة الجزائرية، ارتفاعه الشامخ المهيب نزهه من عفونة القاع وأوساخ الممرات والمنعطفات السحيقة، اللصوص يتحركون في تلك المجاري المظلمة، هم الصُّخور والأشواك النَّابتة عند أقدام الجسور.

النص - صفحة 137

"كنتُ اكتشف صوتك على الهاتف، وأنا في فراشي بعد ليلة مرهقة من العمل".

"وما ذنبي أنا؟ .. لا ذنب لك سوى ذنب المُلهم!".

السياق

أقام (خالد) ليلة كاملة يرسم لوحة (حنين الثَّانية)، وفي الصَّباح اتصلت (حياة) فجاء صوتها شلاّل فرح، وشجرة ياسمين تساقطت أزهارها على وسادته، قال لها أنه لم ينم .. فردت: وما ذنبي؟ فأجابها .. الإلهام .. ذنبي أنا؟

الفكرة

لوحة (حنين القديمة) **١٩٥٧**م، قوية بجسارة ألوانها، بوضوح فكرتها، بتاريخ رسمها؛ مرتبطة بـ(حياة) الطفلة .. باسمها الخفي (أحلام)، تطورت هذه اللوحة الآن بـ(حنين الجديدة) **١٩٨٢**م، تراكمت فيها الصخور والممرات والعوائق الحديثة، (حياة) الشَّابة هي من ألهمه بهذه الفكرة .. لوحتان، زمنان، امرأتان .. فأي إلهام هذا الذي كان؟!

النص - صفحة 142

"وكنتُ أنا أستعيد لهجتي القديمة معك، كنتُ ألفظ التَّاء (تساء) على الطَّريقة القسنطينة".

السياق

في لقاءاته التالية مع (حياة) كان (خالد) يستعيد ذاكرته المنسية، كان يرى فيها ملامح (قسنطينة) بكل متغيراتها المفاجئة، يراها تلبس تضاريسها وتسكن كهوفها ومغاراتها السِّرية، تزور أولياءها وتتعطر ببخورها .. تمشي وتعود على جسورها بخلخالٍ ذهبيٍ يرنُّ في الذَّاكرة.

الفكرة

تشبيه المرأة الكاملة بالمدينة العامرة، (حياة) و(قسنطينة)، ظواهر الأشياء وخفاياها .. الجسد والزِّينة والملاَحة تقابل الربيع والطَّبيعة بكل كنوزها .. والتَّنكر والجحود يقابل الصُّخور والكهوف والمغارات العتيقة.

النص - صفحة 143

"أنا لا أتعب من قراءة سيرة الرَّسامين .. في الواقع شهرتهم لا تعنيني بقدر ما يعنيني تقلبهم وتطرفهم".

السياق

قالت (حياة) أنها كانت تحلم بأن يحبها رسام؛ لأنهم الأكثر جنونًا بين كل المبدعين، وأنَّها قرأت حياة (فان غوغ، ديلاكروا، غوغان، دالي، سيزان، بيكاسو ..)، ومعجبة بجنون (فان غوغ) الذي وصل في لحظة يأس واحتقار إلى قطع أُذنه وإهدائها إلى غانية.

الفكرة

تجسيد نفسي للمرأة كما تصوره الكاتبة، في حوار (خالد وحياة) تحلم أن تكون محبوبة لرسام، لا لأجل شهرتهم بل لجنونهم وتقلبهم وتطرف مزاجهم، يُعجبها فيهم تلك اللحظة الفاصلة بين الإبداع والجنون، اللحظة التي يعجز الكُتاب عن وصفها.

النص - صفحة 145

"أي أحلام .. أنا لا أريد أن أقتل داخلي ذلك الفلسطيني المشرد، فعندها لن يكون لأي شيء أمتلكه قيمة".

السياق

بدأ (خالد) يحكي لـ(حياة) عن شخصية صديقه الفلسطيني (زياد الخليل) رفيقه في الجزائر، والذي تقدم لخطبة امرأة أحبها، لكن عائلتها رفضت، وبعد جهود متواصلة من (خالد) أقنع العائلة؛ وذهب ليبشر (زياد) بموافقتهم؛ لكن (زياد) لحظتها ألغى فكرة الزواج وقرر العودة إلى بيروت والالتحاق بالعمل الفدائي.

الفكرة

جسدت الكاتبة في شخصية (زياد الخليل) ذلك المثقف المتمرد، لا يحب السُّكون ويكره الرتابة، دائم الجلوس فوق حقيبة السَّفر، ما إن يصل إلى ذروة النَّجاح حتى يغادرها مسرعًا ليبحث عن قمة أخرى. و(خالد) مثله يكره الجلوس على القمم التي يسهل السُّقوط منها، (حياة) معجبة بجنون الرسامين، و(خالد) معجبٌ بكل شاعر مشاكس عنيد، ثنائية مرعبة تجمع هوس الرَّسام بتمرد الشَّاعر!

النص - صفحة 149

"كنتِ تنظرين إليَّ بشيء مِن الدَّهشة وربما مِن الإعجاب الصَّامت، وأنا أحدثك لأول مرة عن شجوني السِّياسية".

"كنتُ أشعر أنني مسؤول بطريقة أو بأخرى عن تدهور صحته الفكرية، وأنا أُلقنهُ الأكاذيب بعدما تحولتُ مِن مثقف إلى شرطي حقير يتجسس على الحروف والنِّقاط".

"كنتُ أشعر بالخجل وأنا أدعو أحدهم إلى مكتبي لإقناعه بحذف فكرة أو رأي كنتُ أُشاركه فيه".

السياق

بعد الاستقلال عُين (خالد) مسؤولًا عن النشر والمطبوعات في الجزائر، وكان عمله يقتضي الرَّقابة العامة على المطبوعات، عندما رُفع إليه ديوان شعري لشاعر اسمه (زياد الخليل)، طالعه ثم استدعى صاحبه، وعند مثوله في مكتبه طلب منه (خالد) حذف بعض القصائد، فنظر (زياد) إلى ذراع (خالد) وقال: رُدَّ ديواني لا تبتره .. سأطبعه في بيروت، كان هذا الموقف الصدامي

أول تعارف إجباري بين (خالد) و(زياد)، وسببًا لتخلي (خالد) عن منصبه ومغادرته إلى منفاه في باريس.

الفكرة

للأفكار التحررية مكانها في عقل الإنسان، وعندما يتولى منصبًا عامًا تخضع تلك الأفكار لامتحان عسير، المسؤولية العامة لها أحكام تتعدى القناعات والآراء الشَّخصية، تنتاب (خالد) حيرة وقلق .. المصالح العليا لها سياستها الحاسمة في إقرار المنح والمنع، ومنهجية (خالد) تتعارض مع تقييد الحريات أيًا كانت، يراها استئصالا لجذوره الفكرية، جاء موقف (زياد) ليقدح شرر الصراع النفسي لـ(خالد)، ويشتعل بالتَّحول من البقاء إلى المنفى ومن الحضور إلى الغياب.

النص - صفحة 150

"قلتُ له متحديًا، وأنا أُلقي نظرة غائبة على غلاف تلك المخطوطة: سأنشره لك حرفيًا".

السياق

عندما قال (زياد) رُدَّ ديواني لا تبتره، عصفتْ بـ(خالد) موجة مِن الغضب، وهمَّ أن يبطش بهذا المتعجرف العنيد، وفي نفس اللحظة تزاحمت في وجدانه قيم الحرية التي كان ينادي بها ويكافح من أجلها، فتبدل الحال وتخلى عن المنصب حفاظًا على قناعاته وآرائه الشخصية.

الفكرة

لعل (خالد) كان متطرفًا في موقف كهذا، المصالح العامة من مؤسسات وهيئات ومنظمات لها قوانينها وأنظمتها التي لا تتقيد برغبات الأشخاص، كان بوسع (خالد) أن يكافح في تهذيب القوانين وتليِّينها من خلال موقعه، ولا يحمِّل المؤسسات العامة نزعات الأفراد، يقع أن يتنافر الحماس الفكري للأشخاص مع الواقع السِّياسي للدولة؛ وهذا يتطلب مقاربة ومصالحة تحفظ للأشخاص حقهم في الحماس والإبداع وللدولة حقها في تحقيق العدالة عبر الأنظمة والقوانين.

النص - صفحة 153

"تراني قد بدأتُ يومها باقتراف حماقاتي، الواحدة تلو الأخرى، وأنا أردُّ بعد ذلك على أسئلتكِ الكثيرة حوله، بأجوبة تثير فيك فضول الأنثى والكاتبة في آن واحد".

"كان لا بدَّ أن أُحدثك عنه وأنا أتوهم أنَّ الجبال لا تلتقي، لماذا كنتُ أُحدثك عنه بتلك الحماسة، وبتلك الشَّاعرية؟".

السياق

كان (خالد) يحدثُ (حياة) عن الشاعر الفلسطيني (زياد) كثيرًا، ويمجِّد ثقافته ومواقفه العروبية وشعره الفدائي، كانت تسأله عن تفاصيل حياته وأخباره، تنبه (خالد) أنَّه قد وضع لـ(زياد) مكانًا في قلبها ربما كان مكانه هو .. ومِن هنا بدأت مأساة جديدة في حياة (خالد)، لأن (زياد) سيلتقي (حياة) في عودته القدرية من بيروت.

الفكرة

أكانت الغيرة لحبٍ متيَّم أو لوطنٍ منهوبٍ أو لقضية تائهة .. هناك علاقة حميمة بين الشَّك والغيرة، يبدأ الشَّك بنقطة حمراء في المشاعر المرهفة .. وسرعان ما يتوقد لهبًا وجمرًا .. كيف لذاكرة موبوءة بالبُعد والنِّسيان أن تتعافى مِن جحيم الشَّك والرِّيبة؟

النص - صفحة 154

"لم أكن أتوقع يومها أن يحصل كل الذي حصل، وأن أكون أنا الذي سيتحول ذات يوم إلى منقِّبٍ يبحث بين سطورك عن آثار زياد، ويتساءل مَن منا أحببت أكثر، ولمن بنيت ضريحك الأخير وروايتك الأخيرة .. ألي .. أم له؟".

السياق

اكتملت دائرة الشَّك .. فبعد مجيء (زياد) قدمه (خالد) لـ(حياة)، في أيام تالية شعر (خالد) بفتور العلاقة مع (حياة)؛ فتأكدت له شكوكه بأن حمامة أحلامه قد طارت منه.

الفكرة

كثير ما تعتري المحبين والعشاق فترات خمول، وربما صار الخمول تجافيًا وافتراقًا، تتسع دائرة الشَّك فتبتلع رهافة اليقين، تصبح المراسلات الأخيرة أدلة إثبات على الشكوك والظنون.

النص - صفحة 155

"لم أبدأ مِن الصفر .. نحن لا نبدأ مِن الصفر أبدًا عندما نسلك طريقًا جديدًا .. إننا نبدأ مِن أنفسنا فقط، أنا بدأت من قناعاتي".

السياق

دهِشتْ (حياة) عندما شرح لها (خالد) أسباب خروجه من الجزائر، كانت المهام والمسؤوليات التي أُوكلتْ إليه في مجال النَّشر والمطبوعات خارج قناعاته، وديوان (زياد) أقنع (خالد) بأن يبقى كما هو دون حذف أي قصيدة؛ فكان سببًا لاستقالته من الوظيفة وهجرته إلى منفاه، فقالت له (حياة): أتيت إلى (باريس) لكي تبدأ من الصفر.

الفكرة

قد توكل إلى إنسان مهمة تتعارض مع قناعاته الفكرية؛ فيظل في دوامة من الصراع النفسي، ويصبح أمام خيارات: أن يغير القناعة ويستسلم، أو يتحول إلى وظيفة أخرى، أو يغادر إلى جهة بعيدة ويبدأ حياته مِن الصِّفر.

النص - صفحة 157

"رحتُ من فرحي أشرع الباب لكِ مسبقًا، وأنا أجهل أنني أشرع قلبي للعواطف والزَّوابع".

السياق

في واحدة مِن أهم زيارات (حياة) لـ(خالد)، كان متفائلاً بأن تغيرًا جذريًا جميلً يحيط حياته .. لكن الأمر غير ذلك.

الفكرة

تأنس النَّفس لما تتصور أنه غاية السعادة والفرح، قد يكون كذلك!! وربما كان مفتتح الكآبة ومنزلق التَّحسر، هل يعي الإنسان هذا؟ أم أن السعادة حمقاء! والعاشق لا يرى إلا بعين الصبوة والهوى.

النص - صفحة 158

"تراني كنتُ أفعل ذلك، وأنا أستعيد جملة كاترين؟".

"ها أنا أكاد أضع قبلة على خدك!".

السياق

كانت زيارة (حياة) الأخيرة إلى مرسم (خالد) زاخرة بالحديث حول الرسم وما يتعلق به من فكر وفلسفة وشعر، عن جمال نهر (السين) المتدفق في الجوار، وعن دوره في إلهام الأدباء والفنانين، كانت بوصلة اللقاء واضحة نقية إلَّا من رياح لاهبة تصر على تحويل الوجهة إلى هوة سحيقة.

الفكرة

لقاء كهذا .. لا يخلو من التفكير بشيء من العبث العاطفي البعيد عن الغايات السامية، أرادت الكاتبة إثبات فارق مهم في العلاقات. (خالد) و(كاترين) رمز الآخر الغربي، علاقة مبنية على شرعية الجنون، (خالد) و(حياة) رمز الذَّات الوطنية، علاقة مبنية على شغف البحث والتَّنقيب في جدار الذَّاكرة.

النص - صفحة 159

"أنا مسكون بالفوضى، ولكنني لا أسكنها بالضَّرورة".

السياق

قالت (حياة) أنَّها معجبة بشقة (خالد) فهي مؤثثة بكثير مِن الذوق، على عكس ما كانت تتصوره كمنزل رسام .. يتسم بالفوضى وبعثرة الأشياء.

الفكرة

تُحلل الكاتبة على لسان (خالد) نفسية الرَّسام الذي ينتمي إليه: (اخترتُ شُّقة شاهقة في ارتفاعها، لأن الضَّوء يؤثثها، اللوحة مساحة لا تؤثث بالفوضى وإنما بالضوء ولعبة الظِّل والألوان)، أيكون الرَّسام كلوحته البيضاء قبل رسمها؟ أم أن تحليله من قبيل الزهو عند مخاطبة الأنثى؟

النص - صفحة 160

"إن المطر يغريني بالكتابة .. وأنت؟".

"وكنتُ على وشك أن أُجيبك .. وأنا يغريني بالحب".

السياق

كان (خالد) و(حياة) يطلان مِن النَّافذة على نهر (السين)، وكانت السَّماء تجود بالمطر، والنَّهر إناءٌ يطفح بدموع مدينة تحترف البكاء!!

الفكرة

المكان والطقس والمناظر الطبيعية تضفي على الإنسان هالة من السعادة والشُّعور بالرضى. الجلوس على حافة المطر .. قريبًا منه ومحميًا به في آن واحد يولِّد الأمان، منظر المطر يستدرج المتأمل فيه إلى أحاسيس جميلة .. وقد تكون متطرفة أحيانًا!

النص - صفحة 161

"أنا لم أفعل شيئًا عزيزتي سوى القراءة، ثروة الآخرين تُعد بالأوراق النَّقدية، وثروتي بعناوين الكتب، أنا رجلٌ ثريٌ كما ترين! قرأتُ كل ما وقعت عليه يدي .. تمامًا كما نهبوا كل ما وقعت عليه يدهم!".

السياق

كان من المناسب وقتها أن يقرأ (خالد) أنشودة المطر (للسياب)؛ فتعجبت (حياة) أتعرف شعر السَّياب أيضًا؟ فراح (خالد) يعقد لها مقارنة بين ثراء المال وثراء القراءة.

الفكرة

الحوار مع الذَّاكرة .. مع الوطن .. مع الذَّات، هناك قُراء وهناك نهابون!! للقراءة أوفياء وكَذَبة!، وللأوطان أوفياء وخونة ونهابين، الأكثر ضررًا من كل هؤلاء هم المثقفون النَّهابون! فمن أي الفريقين يكون هو وهي وأنا؟

النص - صفحة 163

"هل يمكن أن أرى هذه اللوحة؟ قلتُ وأنا أقودها إلى مرسمي: طبعًا".

السياق

قالت (حياة) لـ(خالد): هل رسمتَ (نهر السين) وجسر (ميرابو) الماثلين أمامك؟ قال (خالد): لا .. كنتُ أتأملهما بعيني ويدي ترسم قنطرة (سيدي راشد) بقسنطينة، نحن لا نرسم ما نسكنه وإنما ما يسكننا.

الفكرة

نرسم ما يسكننا .. تتزاحم في الذَّاكرة ظواهر الأشياء وخفاياها، الظواهر .. تلك التضاريس والأماكن والجسور المعلقة، وأما الخفايا وما أكثرها .. الأحداث والأشخاص والنجاحات والخيبات المريرة.

النص - صفحة 164

"قلتُ وأنا أنقل نظري منها إليك: لقد بعثتُ فيها الحياة .. إنَّها أنتِ".

"أنا؟!".

السياق

وقفتْ (حياة) في المرسم تتأمل آخر لوحة رسمها (خالد)، وهي النسخة الثانية للوحة (حنين) جسر (قنطرة الحبال) بقسنطينة، اللوحة المطوَّرة وقد أبرز فيها الصُّخور العنيدة، والممرات السِّرية، والأشواك المسننة التي أنبتتها عفونة القاع السحيق.

الفكرة

لوحة (حنين ٢) ترمز إلى شخصية (حياة)!! بين الأولى والأخيرة خمس وعشرون عامًا (الطُّفولة والشَّباب)، (البراءة والجشع)، (الحلم والأنا)، الأولى لجسر شامخ واضح الارتفاع والمدى، والثانية لنفس الجسر وقد ظهر في جهاته ما كان خافيًا، هناك علاقة في المتغيرات: التضاريس، المرأة، الوطن، القيم والمبادئ.

النص - صفحة 165

"قلتُ وأنا أرفع تلك اللوحة من الأرض: هل تُزعجكِ هذه اللوحة حقًا؟ .. أجبتِ بشيء مِن الكذب الواضح: لا".

"واصلت وأنا أشعر أنني قادر في تلك اللحظة على أن أرتكب أي جنون .. إذا شئتِ سأتلفها أمامك .. لا، أأنتَ مجنون!".

السياق

كان (خالد) يرفع لوحة لوجه (كاترين)، الصَّديقة الفرنسية، رمز الآخر الغربي، وقتها شعر بغيرة تتوقد في صدر (حياة)، وعجزت هي عن إخفاء عنادها وأنانيتها الطُّفولية.

الفكرة

تتجاذب النفس قضايا متصارعة: الآخر الذي جاء بشرعية الفراغ والجنون والمنفى، كأنها وجبة (سندوتش)، والآخر الحاضر بكل جذوره التاريخية والوجدانية والرُّوحية، (كاترين، حياة) مدينة يسكنها، وذاكرة تسكنه.

النص - صفحة 166

"قلتُ لك وأنا أمسك من ذراعك: لا تغاري من هذه اللوحة، هناك امرأة واحدة تستحق أن تغاري منها".

"إنها تشبهني كثيرًا، أنا بذراع واحدة، وهي بلا ذراعين!".

السياق

كان (خالد) قد اقتنى ضمن أثاثه تمثالًا لمرأة بلا ذراعين، جعل لها مكانًا مميزًا في زاوية مِن المنزل، وقال إنها تقاسمه غربته، وأنَّه وهي .. صامدان رغم عاهتهما.

الفكرة

كيف لها أن تغار من لوحة أو مِن تمثال مبتورة الذِّراعين، وهو لم يغار من كتاباتها ورواياتها؟ وقد قالت ذات مرة إنَّها تكتب لتقتل أبطالها وتتخلص من عبئهم.

النص - صفحة 167

"ورحت أنا أحاول فهمك".

"عادت عيناك إلى اللوحة الأخيرة، تأمّلتِها قليلاً ثم قلتِ: إذن هذه أنا؟".

السياق

(حنين٢) .. قال (خالد) لـ(حياة) أنَّه أمضى ليلة كاملة في رسمها، وها هي أمامها .. لوحة ثانية لجسر (قنطرة الحبال)، هي أنتِ!! لذلك عادت إليها لتكتشفها من جديد! ولتسأل .. لماذا رسمها جِسرًا ولم يرسمها امرأة حسناء؟!

الفكرة

أنتِ لوحة (حنين٢) .. هكذا أراكِ، فيك شيء من تعاريج هذه المدينة، مِن استدارة جسورها، مِن شموخها، مِن مخاطرها، مِن مغارات وديانها، مِن هذا النَّهر الزَّبدي الذي يشطر جسدها، مِن أنوثتها وإغرائها السِّري ودوارها.

النص - صفحة 168

"أنا لا أفهم أن تحبي (قسنطينة) وتكرهي الجسور، تبحثي عن الإبداع وأنتِ تخافين الدوار، لولا الجسور لما كانت هذه المدينة!".

"ربما كنتَ على حق، ولكنني كنتُ أفضل لو رسمتني أنا وليس هذا الجسر".

السياق

أثناء حوارهما، قالت إنَّها لا تحب الجسور المعلقة، وأنها كلّما مرت بها تشعر بالفزع والدُّوار، قد تحب تلك الجسور المرسومة على بطاقات نهاية السَّنة وهي مرشوشة بالثلج والفضة.

الفكرة

وجد (خالد) فرصة ليفحم (حياة) الذَّاكرة .. التي تتخلص مِن عشاقها على هواها، يبرهن حالة المأساة الواقعية، عن الذين ينهبون الجميل مِن أوطانهم ولا يكلفون أنفسهم عناء البذل والتَّضحية لأجل تعافيه ومداواة جراحه.

النص - صفحة 169

"أعترف أنَّني منذ البداية كنتُ أحلم أن ترسمني أنا، أن أحتفظ بهذه اللوحة عندي كذكرى، شرط ألَا تضع عليها توقيعك إذا أمكن".

"شعرت برغبة في الضَّحك .. برغبة في الحزن، وأنا أكتشف ذلك المنطق العجيب".

السياق

تريد من (خالد) أن يرسمها .. ولا يضع توقيعه على اللوحة!!

الفكرة

تُعزِز الكاتبة فكرة التَّغول الذي ينتهجه الأنانيّون للاستحواذ على جهود الآخرين وكفاحهم، الأنانية تبدأ من فكرة صغيرة قد تبدو منطقية لكنها تكبر فتصبح جحودًا ونكرانًا، هذا الانتفاخ الواهم يأخذ مساحة كبيرة من الحياة على حساب الطيبين والحالمين بمستقبل مشرق.

النص - صفحة 170

"وهنالك أنا .. المجنون العنيد الذي يرفض هذا المنطق الجديد".

"ولذا أنا أكره اللوحات الجاهزة للتزوير".

"صحتُ وأنا أستوقفك في الممر .. أحق ما تقولين؟ قلتِ: طبعًا أنا أقضي عطلتي الصَّيفية مع والدتي في الجزائر".

السياق

طرح (خالد) درسًا آخر .. لقد علمته التَّجارب أن لا يمنح الآخرين أعمالًا على ورقة بيضاء فيشجعهم على التَّزوير والاستخفاف بحق الآخرين وكفاحهم، عندها خرجت (حياة) من الموضوع وأشعرته أنَّها ستسافر إلى الجزائر لقضاء العطلة الصَّيفية.

الفكرة

التمسك بالحق الشخصي وعدم التفريط فيه من القيم النبيلة .. ليس طمعًا بل كرامة، ومن أجل الآخرين أيضًا، حتى لا يقعوا في شباك الاحتيال الذي تمارسه جماعات التَّزييف والعواطف الكاذبة.

النص - صفحة 171

"أمسكتُ بذراعك وكأنني أمنعك مِن الرَّحيل، وسألتك بحزن: وأنا ..".

"كان الحزن يهجم عليَّ فجأة، وأنا واقف هكذا في ذلك الممر أتأملك بذهول من لا يصدق".

السياق

تفاجأ (خالد) بقرار سفر (حياة) إلى الجزائر، ماذا يصنع وهو يشعر باستحالة العيش بعيدًا عنها: (عبدٌ لمدينة أصبحت أنتِ، لذاكرة أصبحتِ أنتِ، ...)

الفكرة

رهبة اللقاء بالذَّاكرة واحتمالات الفراق، الوطن والأنثى .. اللقاء والفراق .. الحب والوفاء، أين وجه التشابه؟ وأين تقابل الأضداد؟ في العمق الفلسفي قواسم مشتركة بين المرأة والوطن.

النص - صفحة 172

"وها أنا أذوب أخيرًا في قُبلة قسنطينية المذاق، جزائرية الارتباك".

السياق

افترقا على قُبلة الوداع على أمل التلاقي.

الفكرة

قُبلة للأنثى .. للوطن، دعيني أتزود منكِ لسنوات الصَّقيع، احرقيني عِشقًا (قسنطينة)، أو اخمدي لهيب العِشق بقُبلة مجنونة، امرأة هي .. بشفتيها وخدودها وعروقها، (قسنطينة) هي .. بهضابها وجمالها وخداعها .. ذاكرة إنسان لم يمت ولم يتعافَ.

النص - صفحة 173

"جائعٌ أنا إليك .. عمرٌ مِن الظمأ والانتظار".

السياق

استحضر (خالد) في تلك اللحظة شخصية قائده (سي طاهر)، والد (حياة)، فكانت اللحظة ذروة مِن الصراع الداخلي بين شخصين داخل شخص واحد. قتل (خالد) في نفسه الأب والمناضل وحارس القيم، وأحيا شخصية الواقع الذي يفرض نفسه بكل أخطائه.

الفكرة

كانت القُبلة نقطة فاصلة: على شفتيك ولدتُ ومتُّ في وقتٍ واحد، قتلتُ رجلاً وأحييتُ آخر، قتلتُ المناضل الجسور وحارس القيم الوطنية، وأحييتُ واقعًا بائسًا بما فيه مِن أدوات الوهم والنِّفاق والتَّزلف.

النص - صفحة 174

"أجبتُكِ بسعادة وأنا أجد أخيرًا في ذلك الموضوع مخرجًا لارتباكي: نعم .. هناك ديوان آخر له أيضًا".

"أنا واثقٌ أنَّ هذين الدِّيوانين سيتركان تأثيرهما على كتاباتك".

السياق

قبل مغادرة (حياة) لمنزل (خالد) ألقت نظرة على المكتبة، ووقعت عيناها على ديوان شعر لـ(زياد الخليل)، فاستعارتْ ديواني شعر.

الفكرة

جعلت الكاتبة آخر لقاءات (خالد) و(حياة) في هذه المرحلة متعلقٌ باستعارة ديواني (زياد)؛ لتجعل مِن هذا المغزى الذَّكي تمهيدًا للقاء بين (حياة) و(زياد)، وهناك تشتعل نيران حارقة مِن الغيرة والشُّكوك، تتداخل عوالم الخيانة الأنثوية بعوالم الخيانات الوطنية.

النص - صفحة 176

"لماذا حوَّلت هذه اللوحة إلى قضية شخصية أنا وحدي معني بها؟".

"كيف لم أشعر بعدها بأي إحساس بالنَّدم؟ بأي خجلٍ تجاه ذكرى (سي طاهر)؟ أنا الذي كنت أقترف يومها أول خيانة بالمفهوم الأخلاقي، لا .. لم يكن في قلبي سوى الحب".

السياق

يتعذب (خالد) الرسام تحت وطأة الفراق بكل ما يخالطه مِن نشوة وخيانة، لحظة عابرة جمعت في طياتها قمة رفيعة من النبالة الزكية، وحفرة دنيئة من السفالة الحقيرة.

الفكرة

أين تختفي تجليات القيم الفاضلة عند اقتحام النزعات العاطفية لأسوار الروح؟ حتى العقل يعجز أحيانًا عن حماية التاريخ النضالي، يتنحى جانبًا ليترك للعواطف الآنية أن تفعل فعلها في الروح والجسد.

النص - صفحة 177

"كيف سمحتُ لنفسي أن أكون سعيدًا إلى ذلك الحد، وأنا أدري أنني لم أمتلك منك شيئًا في النِّهاية، سوى بضع دقائق للفرح المسروق، وأنَّ أمامي متسعًا من العمر .. للعذاب؟".

السياق

ختمت الكاتبة الفصل الثالث مِن الرواية بهذه الفقرة وهي فقرة متعلقة بقُبلة الوداع.

الفكرة

بضع دقائق للفرح .. متسع من العمر للعذاب، للحياة منعطفات إجبارية، منها ما يقود إلى نجاح مبهر ومنها ما يقود إلى فشل مؤلم، يحصل أن يأتي الفرح بعد محطات من الأحزان والمتاعب، وربما يحدث العكس.

النص - صفحة 179

"ما أعظم الله! فهو عظيم بقدر ما أنا وحيد".

"وكنت أنا في عزلتي ووحدتي".

السياق

يتذكر (خالد) عزلته بعد رحيل (حياة) في إجازة صيفية إلى الجزائر.

الفكرة

الانعزال السلبي ينحدر بصاحبه إلى قاع سحيق، إلى مواجع فادحة من الاضطراب النفسي والتَّشوش العاطفي، يصبح فيها الإنسان ريشة في مهب الريح العاصف. قلقٌ يزيد من وحشة المنفى، وهناك زاوية وحيدة يُعوَل عليها في مداواة الأشقياء؛ أن يلجأ المتعبون إلى الله طلبًا للرضى، وأملاً في تغير الأحوال.

النص - صفحة 182

"أتأملها مدهوشًا، وأنا أكتشف أنني الوحيد الذي كان يعرق وينزف أمامها".

"أنا الذي حوَّلني حبك إلى مدينة إغريقية، لم يبقَ منها قائمًا غير الأعمدة الشَّاهقة المتآكلة الأطراف".

السياق

في عزلته الكئيبة يحاول (خالد) أن ينتصر على مخاطر الانحدار النَّفسي، يرسم على لوحات بيضاء وسرعان ما يمزقها ويقذفها إلى سلة المهملات، يحسُّ كأنَّه بقايا أعمدة منهارة خربة.

الفكرة

إذا انتصرت النَّفس في معاركها الدَّاخلية ستنتصر وجودًا وإبداعًا وفنًا، وإذا انهزمت في أعماقها انحدرت إلى هوة سحيقة فلا ترى في طريقها غير الخيبة والفشل، نعيش مقاومة شرسة بين إرادة النصر وتوقعات الهزيمة.

النص - صفحة 183

"وكنتُ كلَّما رسمتُ امتلأت بها أكثر، وكأنني أبعث الحياة في تفاصيلها المنسية، وإذا بي أزداد تعلَّقًا بها، وأنا أُعلِّقها من جديد على جدران الذَّاكرة".

السياق

ظل (خالد) في وحدته يرسم من غير لوحات ولا فرشاة ولا ألوان، يرسم في الخيال، يرسم الوطن بتفاصيل المحبوبة، ويرسم المحبوبة بتضاريس قسنطينة، يتذكر ذراعه الوحيدة وحبه التائه، يتساءل وربما يقرر .. أحبّك السُّراق والقراصنة وقاطعوا الطُّرق، ولم تقطع أيديهم، ووحدهم الذين أحبوك دون مقابل أصبحوا ذوي عاهات!!

الفكرة

لك أن ترسم وجه الحبيبة ممزوج بخارطة الوطن. أن ترسم جسدها بخطوط التضاريس والجبال والوديان. في جلسات الشُّوق الضَّائع تحيطنا موجات الغيم الداكن محملاً بغبار اليأس، تتشكل منه رسوم الكآبة، تلتصق في جدار الذَّاكرة دون انفكاك.

النص - صفحة 185

"هل أخجل مِن ضعفي معك، وأنا لستُ فيلسوفًا للقوة؟".

السياق

تحدث (خالد) عن (نيتشه) فيلسوف القوة والجبروت، وكيف وقع صريعًا لقُبلة وحيدة سرقها مصادفة مِن عشيقة أحبها أكثر من شاعر في عصرها.

الفكرة

حتى فلاسفة القوة ودعاة الجبروت، تلحقهم نوازع الضَّعف حين يقعون في شباك الحب والغرام، أفكارهم المتمردة تذوب في خضم العواطف المشتعلة، الفلسفة الحقيقية ما كانت واقعًا لا تنظيرًا.

النص - صفحة 186

"وهل أندم عليها؟ أنا الذي بدأ عمري على شفتيك؟".

السياق

هل يندم؟ وجره السؤال للاستفسار عن مصير (نيتشه)، هل انتحر أم أصبح مجنونًا؟

الفكرة

النَّدم .. الجنون .. الانتحار

النَّدم: معركة في ظل البقاء والمقاومة.

الجنون: انفكاك العقل عن الجسد الحي، وخروج الإنسان من دائرة التكليف والمسؤولية.

الانتحار: الخروج من دائرة الزَّمان والمكان بشرعية القتل الاختياري.

النص - صفحة 187

"بأي يدٍ يجب أن أرسمك أنا؟".

السياق

يحاور (خالد) نفسه في عتمة الفراغ: هل يرسم (حياة)؟ وكيف يرسمها؟ بيده اليُمنى أم اليُسرى؟ هل يرسمها كما هي أم يرسمها بالمقلوب، ويعرض لوحتها بالمقلوب؟

الفكرة

يحاول (خالد) أن يفهم (حياة) رمز الحب المتقلب والوطن الغائب، رمز الذَّاكرة المهددة بالنِّسيان، هل يستطيع فهمها؟ نعترف بحب الأنثى كحبنا للوطن، ونشتكي منهما مرارة النكوث بنا والتحايل علينا.

النص - صفحة 188

"أي (باريس)؟ أنا في (قسنطينة)!!".

السياق

جاء صوت (حياة) عبر الهاتف؛ فسألها (خالد) بعد طول انقطاع: أنتِ في باريس؟ تعمدتْ (حياة) أن تتصل بـ(خالد) من مدينة (قسنطينة) وليس مِن العاصمة (الجزائر)، ليحضر في حديثهما جسور تلك المدينة وقناطرها.

الفكرة

عندما يتسنى لك زيارة مدينة عزيزة عليك وتصبح في قلبها المكاني، تتوافد إلى خيالك الوجداني ذكريات الأمس بأحداثها وأشخاصها .. تود لحظتها أن تهاتف كل من له علاقة بذكرياتك وتاريخك وأيامك الخوالي.

النص - صفحة 189

"إن أجمل ما في قسنطينة جسورها لا غير، لقد ذكرتُكَ وأنا أعبرها".

السياق

تعمدت (حياة) نسيان (خالد) أثناء تواجدها في الجزائر، وعند زيارتها لقسنطينة وجسورها قررت الاتصال به؛ لعلاقة تراها مهمة بين الاتصال والموضوع.

الفكرة

أرادت الكاتبة إبقاء رمزية الأنثى (حياة)، وتضاريس المدينة (قسنطينة)، ومنفى الذَّاكرة (باريس) متداخلة ببعضها في مسارات الرِّواية، هنا تحتشد ثلاثية (المكان والإنسان والذِّكريات) في اتصال واحد عبر الأثير.

النص - صفحة 190

"لم أكن أتوقع يومها وأنا أبدأها، أنني أبدأ أغرب تجربة رسم في حياتي".

السياق

اتصال (حياة) بـ(خالد) من فوق الجسور المهيبة لقسنطينة جعله يتقمص حياة الجسور بكل أفراحها وارتيابها، بكل جلائها وغموضها، بأسرارها ووضوحها.

الفكرة

تتجلى فكرة (خالد) حين يرسم قنطرة (سيدي راشد) بقوله: لا بد أن أرسم لأرتاح، أرسم ملء يدي، ملء أصابعي، أرسم بيدي الموجودة وبتلك المفقودة، أرسم بكل تقلباتي، بتناقضي وجنوني وعقلي، بذاكرتي ونسياني؛ حتى لا أموت قهرًا ذات صيف، في مدينة فارغة إلَّا مِن السُّواح والحمام.

النص - صفحة 193

"كنتُ أدري وأنا أضع فرشاتي لآخر مرة وأنا أنتهي منها".

السياق

رسم (خالد) قنطرة (سيدي راشد)، فكانت الألوان تأخذ فجأة لون ذاكرته، أصبحتْ نزيفًا يصعب إيقافه، ثم رسم بعدها عشر لوحات أخرى بنفس الشَّغف والجنون والأشواق.

الفكرة

هبت في روحه عاصفة الشَّوق المجنون، فأخذ يرسم (قسنطينة) حجرًا حجرًا، جسرًا جسرًا، حيًّا حيًّا، كما يرضي عاشق جسد امرأة لم تعد له، عبرها ذهابًا وإيابًا بفرشاته، قبَّل ترابها وأحجارها وأشجارها ووديانها، وزَّع عشقه على مساحتها قُبلاً ملونة .. هي اللوحة التي بكى لها جسده.

النص - صفحة 194

"ماذا تريدين مني بالتحديد؟ ومَن أكون بالنُّسبة إليك؟ .. وما اسم قصتنا هذه؟".

السياق

بدأت الهواجس تثور في أعماق (خالد) مع حلول (أيلول) ومجيء (زياد) مِن (بيروت) وعودة (حياة) مِن (الجزائر).

الفكرة

تتحول المرأة أحيانًا إلى زوبعة، تأتي وترحل وسط الأعاصير والدَّمار، تكون معطفًا لغيري وبردًا لي، تكون الأحطاب التي أحرقتني بدل أن تدفئني، هكذا عاش (خالد) بين زوبعتين مِن زوابع الجنون.

النص - صفحة 196

"شعرتُ وأنا أستقبله أنني افتقدته طوال هذه السَّنوات دون أدري".

السياق

كان استقبال (خالد) لـ(زياد) حافلاً بالشَّوق والأفراح والمحبة.

الفكرة

الاستقبال على سجيته المعتادة، مِن فرح وابتهاج وشوق، لم يتخلل العلاقة حتى الآن مساوئ الشَّك والرِّيبة مِن جهة (خالد)، لم تتعرف (حياة) بعد على (زياد).

النص - صفحة 197

"فينعتها في فورة غضبه بكل النُّعوت الشَّرقية البذيئة، التي أضحك لها وأنا أكتشف بعضها لأول مرة".

"كل ما مر بي مِن ألم .. مِن غيرة ومِن صدمات، وأنا أضعكما ذات يوم هكذا وجهًا لوجه".

"أنا أكره النِّساء عندما يحاولن ممارسة الأدب تعويضًا عن ممارسات أخرى".

السياق

يستعرض (خالد) مواصفات (زياد)، مِن عادة الشَّتم للأوضاع العامة، أو شتم الذين يشترون مجدهم بالدَّم الفلسطيني، أو نظرته للمرأة بشكل عام.

الفكرة

هكذا تبدو شخصية (زياد) متمرد على كل شيء، مثقف بشجاعة لا ينقصها النَّقد والهجوم اللاذع، لعل كثيرًا مِن النِّساء تميل إلى هذا الصَّخب المثقف، بعكس (خالد) الذي يميل إلى طبع التَّأمل والتَّروي، لعلها فوارق مهمة بين الشَّاعر والرَّسام.

النص - صفحة 198

"التقيتما إذن .. وكان كلاكما بركانًا .. فأين العجب، إذا كنتُ هذه المرة أيضًا أنا الضَّحية!".

السياق

رتَّب (خالد) موعدًا في مطعم؛ ليعرِّف (حياة) بـ(زياد)، وكان لقاؤهما الأول.

الفكرة

كان اللقاء الأول عبارة عن بذرة شك غُرست في كيان (خالد)، انفلقت البذرة في تراب الجسد أشواكًا وحنظلاً؛ فانقلبت حياة (خالد) جحيمًا، أو هكذا شعر وهو يُؤَوِّل كل نظرة وفكرة وحركة.

النص - صفحة 199

"وقف زياد ليسلم عليكِ وأنتِ تقتربين منَّا، وبقيتُ أنا مِن دهشتي جالسًا".

السياق

وصفٌ موجزٌ لأول لقاء بين (حياة) و(زياد)، بحضور (خالد).

الفكرة

لم يكن هناك ما يستدعي الدَّهشة؛ لكنَّه هاجس الشَّك الذي بدأ ينخر كبِد (خالد)؛ ليُحيل أيامه بؤسًا وجحيمًا مستعرًا.

النص - صفحة 201

"ربما كان (زياد) يشبهكِ أيضًا .. اكتشفتُ ذلك مع مرور الأيام، وأنا أنظر إليكما وأنتما تتحدثان أمامي كل مرة".

"تُرى بدأت الغيرة تتسلَّل إليَّ اللَّحظة .. وأنا أكتشف أنني لستُ سوى شبح بينكما! ووجه حُشرَ خطأً في لوحتكما الثُّنائية؟".

السياق

قال (خالد) أن فكرة تشابه (حياة) و(زياد) وتطابقهما تزعجه، كان (خالد) يعاني من تدهور صحي وشحوب لوني، بينما هما يتألقان صحة وجمالًا تثير غيرته.

الفكرة

تدهور في الصِّحة، شحوب في اللَّون .. التَّحول الوهمي إلى شبحٍ هزيل في حضرة الجمال الثنائي المتجانس، بهذه الكيفية تتجلى نفسية (خالد) المنهكة، تحول واهم في سياق اهتزاز نفسي يجلب معه الخيبة والفشل.

النص - صفحة 203

"كان زياد لساني، وكنتُ أنا يده كما كان يحلو له أن يقول، وكنتُ أشعر في تلك اللحظة أنك أصبحتِ قلبنا .. معًا!".

السياق

ما يزال (خالد) يتعلق بأمل من الحب، رغم الشُّكوك التي تساوره بأن (حياة) قد تحولت عنه إلى من عرفه إليها.

الفكرة

قال (خالد) وهو يترجم إحساسه النَّفسي كفكرة عامة: صنعتُ قصتكما بيدي .. بغباءٍ مثالي، كنتُ شبيهًا بذلك العالِم الفيزيائي الذي يخترع وحشًا، ثم يصبح عاجزًا عن السَّيطرة عليه.

النص - صفحة 205

"وكيف يمكن أن يتوقع ذلك؟ وأنا أنسحب تدريجيًا على رؤوس الأصابع؛ لأترك له المجال تدريجيًا لمزيد مِن التَّوسع".

السياق

تتدفق الأسئلة إلى مخيلة (خالد) كما لم تكن مِن قبل، مبعثها الشَّك أولًا، أصبح يسأل ويتساءل .. يفصح عن القليل ويكتم الكثير، والنَّتيجة مزيدٌ مِن الشَّك والرِّيبة.

الفكرة

بفعل الأسئلة الظَّاهرة والشُّكوك الباطنة شعر (خالد) أنَّه ينسحب مُجبرًا مِن ميدان الحب، يتركه مهزومًا متقهقرًا، يخرج مِن دائرة المناورة برمتها، يتخلى عن لواء النصر لصديق عمره (زياد).

النص - صفحة 207

"أنا لا أعرف غير قلَّة قليلة مِن الرَّسامين، اكتشفتُ أعمالهم عن طريق المصادفة".

السياق

هكذا قال (زياد) لـ(حياة)، أبهرها بفلسفته عن الرَّسم والرَّسامين، عن لوحات (خالد) الأخيرة، تلك اللَّوحات التي خصصها لجسور (قسنطينة) بكل ما فيها من جمال وأسرار ومراوغة، كانت الفلسفة جميلة مذهلة؛ لكن (خالد) كان يفسرها على هواه المتشائم.

الفكرة

(زياد) يفلسف لوحات (خالد): لا يظل باديًا مِن الجسر سوى شبحه البعيد تحت خيط الضوء، كل شيء حوله يختفي تحت الضَّباب فيبدو الجسر مضيئًا، علامة استفهام معلقة إلى السَّماء! أي شيء معلق بين السَّماء والأرض هو شيء يحمل موته معه.

النص - صفحة 208

"لقد كنتُ أعتقد وأنا أرسم تلك الجسور أنني أرسمك، ولم أكن في الواقع أرسم سوى نفسي".

السياق

في تلك الليالي قبل شهر أيلول، أصيب (خالد) بشهية مفتوحة للرسم المجنون، فراح يرسم (قسنطينة) جِسرًا جِسرًا، ويستحضر مع هذا الهوس صورة (حياة) بكل تفاصيل جسدها، وكأنه ينتقم أو يتلذذ أو يملأ فراغات الذَّاكرة.

الفكرة

اكتشف (خالد) وهو يسمع فلسفة (زياد) للوحاته الأخيرة أَنَّه لم يكن يرسم (حياة) كما كان يتصور، بل كان يرسم نفسه، يرسم ذاته المعلقة بين السماء والأرض، كان يعكس قلقه ومخاوفه ودواره دون أن يدري.

النص - صفحة 209

"تساءلت وأنا أصل إلى هذه الفكرة .. هل الرَّسامون أنبياء أيضًا؟".

السياق

تأثر (خالد) بفلسفة (زياد) حول نبوءة الرَّسام، تأثر وهو يسمع مقولة الفنان (فان غوغ): سيأتي يوم يفوق ثمن لوحاتي ثمن حياتي.

الفكرة

مدينة (قسنطينة) ألهمت (خالدًا) عمقًا فلسفيًا بديعًا .. نقش أبعاده في لوحاته الأخيرة .. موت المدينة أم ميلادها؟ صمود جسورها المعلقة أم سقوطها في دمار هائل مفاجئ؟ خيط باهت يفصل بين ليلها ونهارها، قلقٌ يتناوبها في غفلة التاريخ!

النص - صفحة 213

"كان يستمع دائمًا إلى الأشرطة نفسها .. لم أكن مولعًا بها على وجه التَّحديد .. وكنت أقول لتفسي وأنا أقضي سهرة كاملة بمفردي: إنه يعيش جنونه أيضًا".

السياق

تتلبس (خالد) شكوكُ الليل والنَّهار، هذا (زياد) يسكن شقته وينفرد في غرفته لساعات طويلة، و(خالد) يراقب مأوى صديقه، يراقب خياله ويحلل همسه وكل خواطره.

الفكرة

يقرر(خالد) حالته النَّفسية بدقة (انتهى جنوني وبدأ جنونه)، لكن الواقع أنَّه جنونه المستمر وحسب، لا يوجد جنون آخر ليبدأ أو ينتهي، كان جنون (خالد) معلقًا على الجدران في إحدى عشر لوحة، ولم يكن هناك أثرٌ لجنون صديقه (زياد).

النص - صفحة 214

"سافرتُ يومها وأنا أحاول أن أُقنع نفسي أنَّها فرصة لنا جميعًا، أن نضع شيئًا من التَّرتيب في علاقتنا".

السياق

في خضم الشُّكوك الخانقة جاء سفر(خالد) إلى (غرناطة) مفاجئًا، ها هو يترك باريس لـ(حياة) و(زياد)؛ ليزداد لظىً في لهيب الرِّيبة والعذاب.

الفكرة

هل يسافر (خالد) بعيدًا؟ أم يبقى حارسًا في بوابة الظُّنون الفائرة، مضطر لهذا السَّفر المتعلق ببرامج الرَّسم والمشاركة، عليه أن يتوهم مبررًا حتى لو بقيت الغيرة جمرًا يحرق أكباده.

النص - صفحة 215

"نسيتُ في جنون غيرتي أنني لم أفعل شيئًا غير ذلك معك، أنا الذي تنكرتُ أيضًا لـ(سي طاهر)، لرجلٍ كان يومًا قائدي".

"مَن منا الأكثر خيانة؟ هو الذي قد يضع أحلامه ورغباته حيّز التَّنفيذ؟ أم أنا الذي لم أنفذها لأنني لم أجد فرصة لذلك؟".

"أنا الذي أنام وأصحو معك من شهور، وأغتصبك حتى في غفوتي .. أم هو الذي ستكونين له بإرادتك؟".

السياق

يزداد اضطرام الغيرة توقدًا في قلب (خالد) أثناء غيابه عن (باريس)، أصبح ثلاثتهم في نظره مثلثًا حاد الزَّوايا، بل مثلث (برمودا) يبتلع كل ما يقترب منه.

الفكرة

ذهبت الغيرة بـ(خالد) إلى أبعد مدى. (حياة)، محور التَّجاذب، و(خالد) غارق في لجج الشُّكوك القاتلة، و(زياد) ذلك المتأهب للأسفار الدائمة، المتمرد على رتابة الحياة، هل الخيانة بأبعادها الشخصية والوطنية والجسدية حاضرة في هذه المعركة التي تدار بين (خالد) وبين ذاته بصورة مفزعة؟

النص - صفحة 220

"كنتُ أستمع إليه وأنا أتفقد بحواسي ذلك البيت".

السياق

بعد عودة(خالد) مِن (غرناطة) استقبله (زياد) بفرح صديق يستقبل صديقه؛ لكن (خالد) كان مثل (الغول) الذي يعود إلى بيته وأول ما يفعله .. يتشمَّم الأجواء بحثًا عن إنسان قد يكون تسلل إلى مغارته أثناء غيابه.

الفكرة

مقارنة جميلة، (خالد) يدخل شقته عند عودته من (غرناطة) مثل (غول) يتشمَّم الذرات والنثيث، بينما (زياد) يستقبله بابتهاج وفرح، لكل واحد منهما تقاسيم وجه وحركة وخيال، عبَّر (خالد) عن حاله الدفين وهو يتخيل مخاطبة (حياة): كنتِ منجمًا للكبريت .. وكان (زياد) عاشقًا مجوسيًا يعبد اللهب.

النص - صفحة 221

"سأسافر الأحد .. ولماذا الأحد؟؟ قلتَها وأنا أشعر بشيء من الحزن والفرح معًا!".

السياق

قرر (زياد) العودة إلى بيروت، لم يكن (خالد) يتوقع هذا القرار، كان يظنه قد استأنس بالبقاء في (باريس)، وبالقرب من (حياة).

الفكرة

أنهى (زياد) زيارته إلى (باريس) وقرر العودة بشكل طبيعي، هل كان يشعر بما يعتمِل في أعماق (خالد) من معارك ضارية؟ أم أنها كانت معركة طرفيها (خالد) ولا أحد غيره؟ هل تغير شعوره بقرار هذا الرَّحيل؟ أم أنَّه تمادى في تحليله لصالح الرِّيبة المشتعلة داخله.

النص - صفحة 224

"وكنتُ أنا لا أقلُّ حزنًا عنكما، ولكن حزني كان فريدًا وفرديًّا كخيبتي!".

"ولأنني ذاكرتك الأولى .. وحنينك الأول لأبوَّة كنتُ أنا نسخة أخرى عنها".

السياق

(خالد) و(حياة) كانا يودعان (زياد)، سيتولى (خالد) مرافقته إلى المطار، واعتذرت (حياة) عن مرافقتهم لانشغالها.

الفكرة

في لحظات الوداع تنبثق أسئلة من ركام الوهم، أسئلة تشكل سياجًا شائكًا يحاصر (خالد)، يُمنِّي نفسه بعودة ذلك الجسد الهارب، لا بد أن تعود (حياة) فهي ذاكرته الأولى وحنينه الدَّائم، أما (زياد) فهو ذاكرة لقضية أخرى.

النص - صفحة 225

"كنتُ أشعر أنني أستعيدُكِ وأنا أستعيد ذلك البيت الفارغ منه".

"وأنني سأخلو فيه بك وأنا أخلو بنفسي".

السياق

غادر (زياد) وانفرجت أسارير (خالد)، تغلب الفرح على الحزن! واعتقد أنَّه سيخلو بـ(حياة)؛ لكنَّ ذلك لم يحصل! ها هي تنسحب مِن حياته تدريجيًا، اتصال خفيف ذات مرة ثم انقطاع دائم.

الفكرة

مؤشرات فتور العلاقة تبدأ من الذَّاكرة نفسها، شعر (خالد) بالفشل فراح يبرر ذلك بـ(زياد) الصديق، وقال إن صوت (حياة) كان يأتي شحيحًا كقطرات الدَّواء، وكان يشعر أحيانًا أنَّها تطلبه مجاملة أو لمعرفة أخبار (زياد)!

النص - صفحة 226

"وكنتُ أنا أثناء ذلك أتساءل تراه كان يكتب إليك مباشرة بعنوان البيت؟".

السياق

ضمير المتكلم (أنا) زائد في السياق، و(خالد) يتساءل عن أسباب تبرم (حياة) وهروبها منه.

الفكرة

برر (خالد) تجافي (حياة) أنَّها متعلقة بـ(زياد) الغائب، يتوهم وجود مراسلات كتابية بينهما، رغم معرفته لطبيعة (زياد) الذي وصفها ذات مرة: زياد إمّا أن يحب ويتخلى عن كل شيء، أو يرحل لأن الذي ينتظره هناك أهم؛ فبأي وجه يواصل (خالد) شكوكه؟

النص - صفحة 227

"تعوَّدت أن أجمع حصيلة ما قلته لي، وأصنع منها حوارًا لرسوم متتالية على ورق، أضع عليها أنا التعليقات المناسبة".

"وكم مِن اللّوحات سألغي إن أنا قاطعته".

السياق

(أنا) زائدة .. كان (خالد) يشبِّه تواصل (حياة) الباهت باللون الأبيض الذي تدخل عليه جميع الألوان، لهذا كان يكره الأبيض ولا يستطيع مقاطعته أو إخراجه من أعماله.

الفكرة

الكذب الأبيض، واللون الأبيض، علاقة متواطئة، الأبيض لون مثل (حياة) يدخل في تركيب الألوان والأشياء، لذلك تعود أن يكسر كذبها الأبيض باللون البنفسجي وبالأزرق والرَّمادي، بكل القلق الذي يخيم على أقوال (حياة) وتصرفاتها.

النص - صفحة 229

"وها أنا أذكره اليوم مصادفة، وأستعيد نصيحتك الأخيرة".

"أم أتحرك أنا ..!".

السياق

ذات مرة قال (خالد) لـ(حياة): أتدرين؟ حبك صحراء من الرِّمال المتحركة، لم أعد أدري أين أقف فيها؟ فأجابته بسخرية: قف حيث أنت، المهم ألا تتحرك، فكل محاولة للخلاص في هذه الحالات ستجعل الرِّمال تسحبك أكثر نحو العمق.

الفكرة

نصيحة ساخرة: كيف صدَّقتُ يومها أنك تخافين عليَّ من العواصف والزَّوابع المتحركة؟ أنتِ التي أوقفتني هنا في مهب الجرح .. ورحتِ تنفخين حولي العواصف وتحركين أمواج الرِّمال تحت قدمي!!

النص - صفحة 231

"لفظ أمامي عدّة أسماء لعدة وجوه، صافحت أصحابها وأنا أتساءل مَن يكون معظمهم؟".

السياق

دعا (سي شريف) (خالد) إلى زيارته في منزله، فذهب واصطحب معه أعز لوحاته كهدية وهي (قنطرة الحبال)، استقبله (سي شريف) وقدمه للحاضرين وكان معظمهم ممن استأثروا بالمناصب والأموال وانقلبوا على قيم النضال والتَّحرير.

الفكرة

يمثل إهداء (خالد) لـ(سي شريف) لوحته الأولى رمزية مهمة، (سي شريف) يمثل دور الشَّخصية المتزنة، يقف في المنتصف، بين قيم الثَّورة ورذيلة التَّنكر لها، أما الحاضرون فسماهم (خالد) نباتات طفيلية، تنمو مِن اللَّا شيء، في أي حوض وأيَّة تربة، تمد جذورها فجأة! تُضاعف أوراقها وفروعها بصورة جنونية.

النص - صفحة 235

"كنتُ حزينًا بما فيه الكفاية بعد ذلك لأكون على حافة البكاء وأنا أنفرد بنفسي ذلك المساء في سريري".

السياق

بعد عودة (خالد) من السهرة في منزل (سي شريف)، وجوه يعرفها وأخرى لا يعرفها، كانت سهرة في (فرنسا)، تحدثوا فيها بالفرنسية، عن مشاريع سيتم تنفيذها عن طريق جهات أجنبية بتمويل من الجزائر، فهل حصل الاستقلال؟!

الفكرة

كانت السهرة جلسة مقارنة بين ما تختزله الذَّاكرة من قيم الوطنية والتَّضحية، وبين الواقع المرير سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، كان (خالد) يحلل الواقع الرَّاهن من خلال الوجوه التي يراها، والعبارات التي يسمعها، توقَّعها جلسة مع الوطن، لكن الوطن غائب، ناب عنه جرحه ووجهه المشوَّه.

النص - صفحة 238

"أفقد فجأة شهية حبي وأنا أتذكر شعرك الغجري الطَّويل الحالك".

السياق

بعد سهرته تلك جاء يوم عيد الحب، اتصلت به (حياة) رغم الجفاء لتقول له: اطلب أيُّها الأحمق .. فالدَّعوات تستجاب اليوم، ففكر أن يقول لها: أطلب شيئًا مِن النِّسيان، وأفصح لها أنَّه يريد أن يُحال إلى التَّقاعد العاطفي.

الفكرة

في خاطر عيد الحب أخذ (خالد) يقارن بين الشَّعر الطَّويل الحالك لـ(حياة)، وبين شعَر (كاترين) الأشقر القصير .. حضارتان تتزاحمان في ذاكرة رجل نفاه الوطن واحتضنه المحتل! مِن منفاه الجميل تصرخ ذاكرته اشتياقًا للجسور بكل شموخها وجحودها، وتذهل لإغراء الحضارة الطارئة، نيران معركة دامية، يومها قال لـ(حياة): دعيني في عيد الحبِّ أكرهكِ بشيء من الحب!

النص - صفحة 239

"يوم اكتشفتُ وأنا أذرف دمعة رجالية مكابرة، أنَّه يحدث للرجولة أيضًا أن تنكس أعلامها .. أذكر أنني لعنتك .. وحقدتُ عليك آنذاك".

"شعرتُ بشيء مِن المرارة المجاورة للبكاء .. أنا الذي لم أبكِ حتى يوم بُتِرت ذراعي".

"طبعًا .. أنا أمارس شعائر الإسلام وفرائضه".

السياق

اكتشف (خالد) أنَّ شهية حبهِ تموت يومًا بعد يوم؛ فيرد أسباب ذلك إلى (حياة). في يوميات الذُّبول الواهن سألها: هل تحبينني؟ قالت: مثل الإيمان، يزيد وينقص! وها هو اليوم يحقد عليها مثل إيمانها، قال لها: وهل تؤدين شعائر الإسلام؟ فأجابت بنعم.

الفكرة

مثلت (حياة) تلك البراءة الصَّافية، الذَّاكرة الوطنية بكل أمجادها، تنشطر عن نفسها أنثى ساحرة .. أنثى ولكنَّها تسببت في انتكاس بيارق الرُّجولة المنفوش في الفراغ، ها هي تغير مسار الرِّيح .. ليتجه ناحية الظِّل الآمن، والتَّدين المحكوم برغبة الارتباط بالله، بعيدًا عن كل مظاهر الزَّيف والرياء، تؤدي الشعائر؛ لأنها ترغب في تحدي المدينة العابثة، تحنُّ إلى التواصل مع جذورها الدينية.

النص - صفحة 240

"كان يأتي ليصالحني مع الله، أنا الذي لم أصم من سنين".

السياق

اتسم التواصل الأخير بين (خالد) و(حياة) بالضمور العاطفي؛ لكنَّه أحيا لدى (خالد) قيم الإيمان والشَّعائر الدِّينية التي اختفت عنه في مدينة تعج بالملذات، وقال يومها: إنَّ (حياة) أيقظت ملائكته وشياطينه في نفس الوقت، وراحت تتفرج عليه بعدما حولته إلى ساحة صراع للخير والشَّر.

الفكرة

تعلق (خالد) بين بقايا حب يتلاشى واستعار حقد يتفشى، ليس أمامه إلَّا الهروب إلى واحة التَّدين الآمن، التَّدين الذي يصالحه مع الذَّاكرة والوطن، ويحرضه ضد هذه المدينة التي تسرق إيمانه بشكل يومي.

النص - صفحة 241

"كنتُ أريد أن أعيد لذلك الرَّجل الذي كان أنا، مكانته الأولى قبلك".

"كنتُ أقع في فخ آخر لحبك، وأنا أكتشف أنني كنتُ أثناء ذلك أعيش بتوقيتك لا غير".

السياق

شعر (خالد) بعد القطيعة مع (حياة) أنَّه أقرب إلى التَّدين الصَّحيح، لكن ثمَّة اشتياق وشعور بالتَّوحد معها في الصَّوم والإفطار والأسحار، شعور بالتَّوحد مع الوطن؛ أصبح (خالد) بين طريقين: (كاترين – فرنسا – الحرية)، أو (حياة – قسنطينة – الالتزام).

الفكرة

تنتصر ملائكة (خالد) على شياطينه، أحسَّ بحديث (حياة) عن الإيمان، وجده طريقًا مناسبًا للهروب. في أيام الصِّيام والعبادة كان ينسى وجهها، ينسى المدينة التي يعيش فيها، كان يستعيد سلطته الروحية، ورغم الانتصار ما تزال (حياة) تداهم سلطانه الذَّاتي وتفرض أوامرها بين الحين والحين.

النص - صفحة 243

"انتهى رمضان، وها أنا أنزل مِن طوابق سمُّوي العابر، وأتدحرج فجأة نحو حزيران".

السياق

يتشاءم (خالد) من شهر حزيران؛ سُجن فيه بـ(الكدية) عام **١٩٤٥**م، وسجن عام **١٩٧١**، وهو هو حزيران المعروف **١٩٦٧**م، وهذا حزيران **١٩٨٢**م، الحب والفراق والجراحات الأليمة، الشهر الذي تشاءم فيه كثير من الشُّعراء؛ بل كثير منهم انتحر في أيامه الصَّائفة.

الفكرة

يتساءل (خالد) أي حزيران كان الأكثر ظُلمًا؟ وأيُّ لياليه الأكثر ألمًا؟ حزيران الذَّات وحزيران الوطن وحزيران القضايا العربية، شهرٌ صيفي نصب نفسه محورًا لتراكم المآسي والخيبات الحزينة، هو ذا الشَّهر يعترض طريقه بعد فترة وجيزة مِن التَّجلي الرُّوحي والسُّمو الإيماني.

النص - صفحة 246

"ورحتُ أتشاءم وأنا أتذكر كلامه عن الصَّيف .. وموت ذلك الشَّاعر منتحرًا".

السياق

في حزيران هذا توافدت الخواطر، ولاح طيف (زياد)، جاء على شكل عاطفة توقظ المخاوف، كان (زياد) يقول: الشعراء فراشات تموت في الصِّيف، وكان متأثرًا بالرِّوائي الياباني (ميشيما) الذي مات منتحرًا بعد روايته (الموت في الصِّيف).

الفكرة

يتذكر (خالد) صديقه (زياد) يوم كان عالقًا في شباك حزيران، يوم سأل: أين أنت يا (زياد)؟ في أي مدينة وأي جبهة؟ في أي شارع وكل الشَّوارع مطوقة، وكل المدن مقابر جاهزة للموت، ويوم أجاب: لم أكن لأقلق عليك فقد عشتَ وسط المعارك والكمائن والحروب الكثيرة!

النص - صفحة 247

"ما زالتْ حقيبته هنا، في خزانة غرفته تفاجئني عدة مرات في اليوم وأنا أبحث عن أشيائي".

السياق

مات (زياد) في حزيران، هكذا قفز الخبر الفاجع مصادفة من مربع في جريدة، ليصيب (خالد) بشلل الذُّهول وصاعقة الفجيعة، مات (زياد) الذي كان له في كل معركة جثّة، وفي كل مذبحة قبرًا مجهولًا.

الفكرة

توقف الزَّمن في كيان (خالد)، تكوَّر النبأ غصةً في حلقه، فلا هو قادرٌ على الصُّراخ أو البكاء، كيف مات؟ وحقيبته عندي تؤكد عودته، بل ما يزال (خالد) يمرر أيامه تحت تأثير الغيرة القاتلة لهذا الذي هزمه حتى بموته.

النص - صفحة 253

"ولذا بدأتُ أخافها فجأة، وأنا الذي لم أكن أعيرها اهتمامًا من قبل".

"عدلتُ عن هذه الفكرة السَّاذجة وأنا أتذكر أنَّه لم يعد لزياد من أهل في لبنان".

السياق

كانت أشياء (زياد) وحقيبته المركونة في الشُّقة تشغل بال (خالد)، وتعذب ضميره؟ هل يرسلها إلى لبنان؟ أم يتصدق بها؟ عادت به الذَّاكرة إلى ظروف موت أمه، وغياب حاجاتها تدريجيًا بطريقة غرائبية تستجلب التأمل والذُّهول!

الفكرة

كانت أشياء (زياد) وحقيبته أثاثًا يصادف دخول (خالد) وخروجه، تستقبله وتودعه، يراها لغزًا جاثمًا على صدره، أتكون هذه الأشياء مفتاحًا لأسئلة الموت؟ ماذا يصنع الأحياء بأدوات موتاهم بعد رحيلهم؟

النص - صفحة 254

"في ذلك المساء .. ارتجفتْ يدي وأنا أفكُ أقفال تلك الحقيبة".

السياق

قرر (خالد) أن يفتح حقيبة (زياد) لعله يجد فيها ما يسلي فجيعته، ولعل ذلك يشفيه مِن حيرته، ويكشف له كثيرًا مِن الأسرار التي عجز عن إدراكها.

الفكرة

للقلب ضربات واجفة عندما نرتب حاجيات صديق ميت، الحسّ الحاضر المرتجف، الخيال المذعور بين الذِّكريات والمواقف، وصديقه مَن؟ (زياد)!! وليس أي صديق، إنَّه طيف مِن الحب والحقد، من الغيرة والأشواق.

النص - صفحة 255

"وأنا أرى ثيابه أمامي، ألمس كنزته الصُّوفية الرمادية، وجاكيته الجلدي الأسود".

"ها أنا أملك حجة حضوره، وحجة غيابه، حجة موته، وحجة حياته".

"ها أنا معه ودونه .. أمام بقاياه".

"وأنا أتذكر أن زياد كلما سافر ترك لي أشرطة وكتبًا وثيابًا وحبًا معلقًا أيضًا".

السياق

رأى (خالد) في حقيبة (زياد) ما قاده إلى كل لحظة عاشاها معًا، الاجتماع والتَّفرق، الأحلام والتَّطلعات، الوفاء والمودة، الظُّنون السَّيئة الكتومة، وحتى رواية (حياة) الأخيرة كانت ثائرة متوقدة.

الفكرة

لحظتها شعر (خالد) برهبة الموت ووهج الحياة .. ضدان يهاجمانه في وقت واحد، نسائم البقاء وفواجع الغياب، طيف الأمل ورغبة البكاء، بقايا ذاكرة تحاول النُّهوض فيقهرها الموت بالفزع الصموت.

النص - صفحة 256

"أنظر إلى تلك البطاقة على عجل، وأنا لا أفكر إلَّا في الاطلاع على تلك المفكرة، ولكن صورته تستوقفني".

السياق

كانت حقيبة (زياد) تحتوي ثيابه الأنيقة وأشرطة وكتب، ورواية (حياة)، ومفكرة فيها أشعار وخواطر، وصورٌ شخصية لزياد.

الفكرة

أكثر ما شدَّ (خالد) مِن كل ما رأى .. صور (زياد)، مربكة صور الموتى، ومربكة أكثر صور الشُّهداء، موجعة دائمًا، يصبحون أجمل بلغزهم! كم كان وسيمًا! مغريًا حتى بعد موته!

النص - صفحة 261

"أسرعُ بإغلاق تلك المفكرة وكأنني أخاف إن أنا واصلت قلب الصَّفحات أن أفاجئكما في وضع لم أتوقعه".

"يحضرني كلام قاله زياد: أنا أكن احترامًا كبيرًا لآدم، لأنه يوم قرر أن يذوق التُّفاحة لم يكتفِ بقضمها وإنما أكلها كلها".

السياق

توقف (خالد) طويلاً عند مفكرة (زياد) يقرأ سطورها وخطوطها الصَّغيرة، يحلل أشعارها وحكمها وتواريخها، ما يزال معتقدًا بأن (زياد) سرق تفاحته من حديقته السِّرِّية .. بل حاول أن يقضمها أمامه.

الفكرة

كان (خالد) يتصفح مفكرة (زياد) بشخصية المحقق الذي يبحث عن أدلة وبراهين، ما يزال مسكونًا بالوهم والغيرة الجاثمة على قلبه رغم موت زياد! ثم هو الآن يتذكر الفلسفة المتطرفة لـ(زياد) بأنَّه ليس هناك مِن أنصاف خطايا ولا أنصاف ملذات، ولا مكان ثالث بين الجنة والنَّار.

النص - صفحة 262

"لقد منحه الموتُ حصانة ضدَّ كراهيتي وغيرتي، وها أنا صغيرٌ أمامه وأمام موته".

"ها أنا لا أملك شيئًا لإدانته".

"لماذا أطارده بكل هذه الشُّبهات؟ وأنا أدري أنَّه شاعر يحترف الاغتصاب اللغوي".

السياق

انتهى (خالد) من مطالعة مفكرة صديقه (زياد)، وندم على ظنونه السَّيئة، لا يوجد في كل ما كتبه (زياد) ما يشي به عليه، فلماذا يصر (خالد) على غيرة وهمية، وها هو مشروع ديوانه القادم (الأشجار) سيطبعه (خالد) ليمنح صديقه عمرًا آخر لا صيف فيه.

الفكرة

بدا (زياد) لـ(خالد) كما كان، جبَّارًا ثابتًا كالأشجار الباسقة، شجرة صامدة في زمن كانت فيه الأقلام سنابلَ تنحني أمام كل ريح آتية. أيُّ عاصفة تزمجر في قلب (خالد)؟ عاصفة الإعجاب والوفاء أم عاصفة الأغيار والجفاء؟

النص - صفحة 264

"منحني مشاريع لأيام كانت فارغة من أي مشروع، فقد حدث في تلك الأيام أن قضيت ساعات بأكملها وأنا أنسخ قصيدة".

السياق

تفرغ (خالد) لإعادة ترتيب قصائد (زياد) التي وجدها في مفكرته استعدادًا لطباعتها ونشرها، فلا أحد يجرؤ على الحكم بموت الكلمات الخالدة، أو يفكر بالاستحواذ عليها.

الفكرة

أيقظ موت (زياد) بقايا مهنة سابقة كان يجيدها (خالد)؛ فراح ينظم ديوانه الجديد (الأشجار) ليقوم بنشره وفاءً وعرفانًا، راح ينقب في أوراق شاعر مات، يتجول في دورته الدَّموية الدافئة، كان يمتلك حق وأدها في دفترها لكنه منحها الخلود في كتاب.

النص - صفحة 265

"تجرفني الكلمات إلى حيث أنا".

السياق

عكف (خالد) على تجهيز ديوان (الأشجار) لـ(زياد الخليل) وإعداده للنشر؛ وضعته المهمة في طريق كان قد أضاعه منذ عقود، مواجهة جديدة مع (قسنطينة) التي يحقد عليها حبًا ويغار منها شوقًا.

الفكرة

جاءت فكرة إخراج ديوان (الأشجار) لتنقذ (خالد) من يأس كاد يقضي عليه، التحم ثانية بصديقه (زياد). يوم طبع ديوانه الأول عُوقب بالفصل والنفي، وهو الآن يشعر بما بينه وبين (زياد) .. تواطؤ الغابات بشموخها وصمتها، بحفيف الريح والعواصف البكماء.

النص - صفحة 268

"قررتُ أن اصحبك معي إلى (قسنطينة) .. لقد أهديتني لوحة عن (قسنطينة) وأنا سأهديك سفرة إليها".

السياق

هكذا جاء صوت (سي شريف) متصلاً بـ(خالد)، يطلب منه السَّفر معه إلى (قسنطينة) لحضور زفاف (حياة) إلى زوجها الجديد (سي مصطفى).

الفكرة

جعل الكاتب من هذا الخبر المفاجئ صاعقة ضربت كيان (خالد)، هدَّت جسده المكدود .. (حياة) عروسة!! خيبة جديدة تغرس مخلبًا حادًا في عنقه، ما الحيلة مع هذه الكوارث والنكبات والمنفى البعيد؟

النص - صفحة 269

"أجبته وأنا أبحث عن مخرج لتوتري: الحقيقة أنني لستُ مستعدًا نفسيًا بعد لزيارة كهذه".

"أنا واثق مِن أنني إذا لم أجركَ هكذا مِن يدك هذه المرة فقد تمضي عدة سنوات أخرى قبل أن تعود إليها".

السياق

ارتبك (خالد) بخبر الزَّواج والدَّعوة المباشرة لحضور العرس في (قسنطينة)! حاول الاعتذار بتوتر، لكن (سي شريف) كان واثقًا أنَّه سيصحبه معه.

الفكرة

كما قال (خالد): الخبر أوقفه في الحد الفاصل بين العقل والجنون، بين الضَّحك والبكاء، توافدت الخواطر الشائكة .. (حياة – أحلام) عرفها طفلة! هل كانت بمثابة ابنة؟ لا .. كان يمكن أن تكون كذلك! كان يمكن أن تكون حبيبة .. زوجة!!

النص - صفحة 270

"أعرف أنا أكثر من رجل طيب كان يمكن إذن أن يصبح زوجها".

"وأنا أسأل نفسي سؤالًا آخر: هل يمكن لشخص يتصاهر مع رجل قذر .. أن يكون نظيفًا حقًا؟".

السياق

قال (سي شريف) عن العريس الـ(سي مصطفى): إنَّه رجل طيب .. تعجب (خالد) وهو يدرك أن (سي شريف) يعرف (سي مصطفى) جيدًا، يعرف صفقاته السِّرية، وفساده المستشري.

الفكرة

عبارة (رجل طيب) دفعت بـ(خالد) إلى السُّخرية بصمت، هذه العبارة باتت مصطلحًا أو تعريفًا مختصرًا لكل القذرين والخونة واللصوص.

النص - صفحة 272

"وكان يلزمه أنا ولا أحد غيري لأبارك اغتصابك، أنا صديق (سي الطاهر) الوحيد، ورفيق سلاحه".

"أنا الهيكل المفتَّت الأطراف .. الأخير الذي بقي مِن ذلك الزَّمن الغابر".

السياق

اعتقد (خالد) أنَّ (سي شريف) يقوم بصفقة قذرة، يبيع بهذا الزواج اسم أخيه (سي الطَّاهر)، ولذلك رأى حضور رفيق أخيه ليكون شاهدًا .. ها أنت أيُّها الهيكل المُفتت أكثر نقمة وأنت تحدث نفسك: أجبرني على الحضور ليُسكِتَ ضميره، يعتقد أنَّ (سي طاهر) سيغفر له؟!

الفكرة

الرَّمزية هنا واضحة جليَّة .. رمزية الارتباط الوثيق بين المرأة والوطن، الوطن الذي ينهبه لصوص تنكروا لقيم التَّحرير والنِّضال. الاغتصاب قد يكون شرعي الشَّكل لكنَّه مُجرَّمٌ على الحقيقة، لماذا قبلتَ الدُّخول في تلك اللعبة يا (خالد)؟ ها أنت تجمع بين صيغتين متفجرتين (حياة) و(قسنطينة) .. وكأنك تجرب قنبلة ذرية في صحراء.

النص - صفحة 274

"أعتقد أنني أنا .. هل نسيتَ صوتي؟".

السياق

بعد ستة أشهر مِن القطيعة جاء صوت (حياة) على الهاتف لتخبر (خالد) بعرسها وتدعوه للحضور، كانت نبرتها عادية لا فرح فيها ولا حزن، وكأن شيئًا لم يكن بينهما!

الفكرة

في هذا الموقف يصف (خالد) صموده أمام اتصالها .. كان واقفًا على الحد الفاصل بين العقل والجنون، يقول بلا صوت مسموع: ما أغرب علاقتكِ بالزَّمن! وما أغرب ذكرياتك! أخبارك ليست سوى جزء من تقلبات الأيام!

النص - صفحة 276

"وأنا أعترف لكِ: لقد أحببتك يوم قرأتكِ، فقلتِ: كان ينبغي ألَّا تقرأني".

"كيف قبلتِ أن ترتبطي به؟ أنا لا أرتبط به .. أنا أهرب إليه فقط مِن ذاكرة لم تعد تصلح للسكن".

السياق

أخذ (خالد) يعاتبها: ارتبطتِ بشخص يسيء لسمعة والدك ونضاله ومكانته الوطنية، كيف تمرغي اسم والدك في مزبلة كهذه؟ أنت لست امرأة فقط، أنت وطن، أفلا يهمُّك ما سيكتبه التاريخ يومًا؟

الفكرة

في هذا الحوار تتجلى فكرة كبيرة عن الوطن كما جسدتها الكاتبة، فكرة التشابه بين الحب والانتماء، بين شخصية الأنثى (حياة) وهوية الموطن (قسنطينة).

النص - صفحة 277

"كانا في الماضي (زياد) وأنا .. وأصبحنا اليوم أنا والآخر".

السياق

صرخ (خالد) وهو يعمم الشَّكوى والشَّتيمة: الأنثى (الوطن) لمن يكون؟ امرأة عاجزة عن حب رجل واحد!!

الفكرة

فسرت (حياة) مجموع العلاقات بين الإنسان والوطن والذَّاكرة بفكرة عبَّرت عنها بحسب اعتقادها: أتدري أنني أحببتكَ! لكنني قررتُ أن أُشفى منك، كانت علاقة حبنا علاقة مَرَضيِّة!

النص - صفحة 278

"عندما أذكر كلامك اليوم، أضحك وأنا أُشبِّه نفسي آنذاك بأثيوبي جائع يسردون عليه قائمة من الأطباق الشَّهية التي لن يذوقها، ويسألونه بعدها كيف وجدها".

"وقتها لم أضحك، بل ربما بكيتُ وأنا أُجيبكِ بحماقة عاشق".

السياق

قال (خالد) عن اتصال (حياة) وهي تدعوه لحضور عرسها: تمنحيني ليلةً وهميَّة، عليَّ أن أتنازل عنها مباشرة لرجلٍ آخر سيستفيد منها فعلاً، وشبه نفسه بالجائع الذي تُعرض عليه قائمة لأشهى المأكولات .. لن يتذوق منها لقمة، لكن عليه أن يمتدح جودتها.

الفكرة

على (خالد) أن يتنازل عن شيء ليس له .. هكذا التاريخ وهكذا الماضي .. استدعوه ليتكفل بفتات الموائد، تحايلٌ على الذَّاكرة .. رموا له عظمة يتلهّى بها بينما نصبت الموائد للآخرين، لم يعِ (خالد) كل هذا إلَّا بعد فوات الأوان، بعدما رُفعت الموائد وبقي وحده أمام فتات الذَّاكرة؛ لذلك بكى!

النص - صفحة 279

"هاتفك انتهى كما جاء خارج الزَّمن، وأنا بين الصَّحوة واليقظة مُمددٌ بذهول في فراشي".

السياق

انتهى اتصال (حياة) بـ(خالد)، واعتذرت عن أي لقاء منفرد، لكن دعته إلى (قسنطينة) لحضور عرسها الكبير.

الفكرة

(قسنطينة) مكان فراقهم الأبدي مثلما كانت مكان لقائهم في جدار الذَّاكرة وعلى الرُّسوم والجسور والقناطر، قال (خالد) بأن (حياة) قررت قتله حسب الأصول، بجرة سكين واحدة ذهابًا وإيابًا.

النص - صفحة 281

"أنا الذي تقتلينني لعدة أسباب غامضة، وأحببتكِ لأسباب غامضة أخرى".

"أنا الرَّجل الذي حوَّلكِ من امرأة إلى مدينة، وحولْتِه مِن حجارة كريمة إلى حصى .. لا تتطاولي على حطامي كثيرًا".

السياق

قال (خالد) أنَّه يريد أن ينتهي من لعبة القط والفأر، رغم أنَّه لا يدري مَن القط ومَن الفأر، لم يعد هناك متسعٌ للكذب .. لا شيء تحتنا غير هاوية الدَّمار .. لستِ حبيبتي .. دعينا نتوقف لحظة عن اللعب .. يا امرأة على شاكلة وطن.

الفكرة

أيكون حب الوطن كذبة أُخرى؟ الوطن لا يُرسم بالطَّباشير، والحب لا يُكتب بطلاء الأظافر، التاريخ لا يُكتب على سبورة تمسك بيد طبشورًا وبالأخرى ممحاة، العشق ليس أرجوحة يتجاذبها الممكن والمستحيل.

النص - صفحة 283

"أحاول أن أُشفى منكِ به، أنا الذي لم أُشفَ بكِ منه".

"ها نحن نسافر – أخيرًا معًا – أنا وأنتِ".

السياق

بعد عشر سنوات مِن غيابه عن (قسنطينة) ها هو (خالد) معلقٌ في نقطة بين السَّماء والأرض مِن (باريس) إلى (الجزائر)، كان يجلس في الطَّائرة على مقعد الدَّرجة الثَّانية مِن النِّسيان، على ارتفاع تصعب معه الرُّؤية، على بُعد يصعب معه النِّسيان.

الفكرة

عودة المهاجر الغريب .. حقيبة مِن حنين، وحفنة مِن أحلام، عاد (خالد) لملاقاة وطن .. على أصابع الجرح يعود، لوحة محطمة وخيبة مكتملة، مِن لوحة مرسومة إلى واحة مكلومة.

النص - صفحة 285

"قادمٌ إليكِ أنا من سنوات الصَّقيع والخيبة، من مدن الثَّلج والوحدة".

السياق

وصل (خالد) إلى (قسنطينة) وكان على نفس الطَّائرة (حياة) وعمها وبقية العائلة، نظرات باردة، ووجوه مغلقة، وجدران رمادية باهتة .. هل هذا الوطن؟ موجعة تلك الغربة .. موجعة هذه العودة.

الفكرة

تجلت الفكرة عندما شرعتْ المضيِّفة بفتح باب الطَّائرة .. لا تدري أنها تُشرع القلب على مصراعيه، مَن يوقف نزيف الذَّاكرة الآن؟ مَن يغلق شباك الحنين؟ مَن يواجه الرِّيح ليرفع الخمار عن وجه المدينة؟ دثريني يا سيدة الدفء والبرد معًا.

النص - صفحة 286

"عشر سنوات .. حدث خلالها في بعض المرات أن انتظرته أنا في مطار (أورلي) الدولي".

"كانت الأدوار معكوسة، كان هو القادم .. وأنا المنتظر".

السياق

يتحدث (خالد) عن شقيقه (حسَّان) الذي استقبله في المطار، (حسَّان) مدرس لمادة اللغة العربية، رجل فارع القامة، مهذب المظهر، يتكلم بحماس وعناد كأنه يخاطب طلابه.

الفكرة

تحاول الكاتبة أن تجسد في (حسَّان) شخصيات (قسنطينة) الأصيلة، تلك الشخصيات الثَّابتة في مواقفها، الواضحة في مسارها، الجادة في تعاملها، المسؤولة عن تصرفاتها.

النص - صفحة 287

"كنتُ أنا غائبها الذي لم يعد، ومريضها الذي لم يشفَ، وصغيرها الذي لم يكبر".

السياق

يستوحي قصته مع (قسنطينة) مِن قصة الأعرابية حين سألوها عن أحب أولادها إلى قلبها .. فقالتْ: غائبهم حتى يعود، ومريضهم حتى يُشفى، وصغيرهم حتى يكبر.

الفكرة

هذه (قسنطينة) تتأمل جواز (خالد) بإمعان وتنسى أن تتأمل وجهه وذراعه، (قسنطينة) أدخلت أصحاب الأكتاف العريضة والأيدي القذرة من أبوابها الشرفية، وأدخلت (خالد) مع طوابير الغرباء والبؤساء؛ لكنه يحبها، هي أمٌ لكنها متطرفة العواطف .. حبًا وكراهية، حنانًا وقسوة.

النص - صفحة 288

"ها أنا أسكن ذاكرتي وأنا أسكن هذا البيت، فكيف ينام من يتوسد ذاكرته؟".

السياق

وصل (خالد) إلى بيت العائلة، حيث يسكن شقيقه (حسَّان)، البيت الذي ولد فيه وتربى وشبَّ بين جدرانه وسواريه.

الفكرة

غطى سواد الليل مدينة (قسنطينة)، وآوى (خالد) إلى فراش النوم، فإذا به يتوسد ذاكرته لا وسادته، طفت الذِّكريات على جدار النَّاصية .. المنزل والممرات والغرف، الأفراح والمآتم والأعياد، الأب بصوته الفخم ينادي بماء الوضوء، والأم بثوبها العنابي الخجول تتفقد مراقد الصغار، وتطوف هنا وهناك .. تضع الأشياء مكانها.

النص - صفحة 289

"وأنا؟ .. وأجبته بالذُّهول نفسه: ما زلتَ صغيرًا يا (حسَّان) .. انتظرني".

السياق

تذكر (خالد) موقفًا حزينًا بعد وفاة أمه، ها هما (خالد وحسَّان) يتيمان بلا أم، قرر (خالد) يومها الالتحاق بالجبهة، وحاول (حسَّان) اللحاق به هروبًا من اليُتم، لكن (خالد) ترجاه البقاء .. ثم عانقه وودعه، تركه يجهش بالبكاء.

الفكرة

يُيتم الوطن كما يُيتم الأطفال، يستذكر (خالد) أمسًا منصرمًا وواقعًا أليمًا، عمرًا طويلاً من المكابدة والضنى .. الأوطان مثل الإنسان، يتعرض صغارهم لليُتم، ويصاحب كبارهم النَّفي والتَّشريد.

النص - صفحة 290

"وأنا آخر عشاقها المجانين .. أنا ذو العاهة الآخر الذي أحبها، أنا (أحدب نوتردام) الآخر، وأحمق (قسنطينة) الآخر".

السياق

في الصَّباح تفتحت عينا (خالد) على مدينة (قسنطينة)، شعر أنَّه العاهة الأخيرة من ضحايا العشق المجنون، كما في رواية (أحدب نوتردام) للأديب الشهير (فيكتور هيجو).

الفكرة

بعد عشر سنوات مِن الغياب يكتشف العائد أن لغته تتمرد عليه .. (قسنطينة) تهزمه قبل أن يلتقي بها. هل جاءت به إليها لتقنعه بالهزيمة؟ ها هو عاجزٌ عن أي مقاومة، هذه أسرار (قسنطينة) وألغازها .. صخورها وجسورها .. وهادها وكهوفها، هي مثل (حياة) بكل تفاصيلها.

النص - صفحة 294

"أذكر أنني سمعتُ وأنا شاب بعائلة غادرت (قسنطينة) فجأة إلى مدينة أخرى، بعدما شاع أن إحدى الأغاني نُظمت تغزلًا بإحدى بناتها".

"ها أنا أقف أمامها اليوم دون فرشاة ولا ألوان".

"أنا لستُ خالقها في هذه اللحظة، لستُ رسامها ولا مبدعها، أنا جزء منها".

السياق

وقف (خالد) على أعلى قنطرة قريبة من المنزل، يتأمل جسور المدينة ووهادها، تذكر ما قالوا أن جده (أحمد) رمى بنفسه من فوق هذا الجسر قبل أن يصل إليه عساكر (الباي)، رفض منح (الباي) شرف قتله، تذكر قصص العائلات التي غادرت (قسنطينة) لأسباب وأسباب.

الفكرة

كان (خالد) يستجدي كل خيال وهو يرسم لوحاته، وهو الآن يقف على الحقيقة، وحيدًا تستوقفه الهاوية السحيقة، مدينة لا يهمها غير نظرة الآخرين لها، تحرص على صيتها خوفًا مِن القيل والقال، تشتري شرفها بالدَّم تارة والبُعد والهجرة تارة أخرى .. الجسر المتوثب دومًا .. الوادي المتطاول عمقًا .. الهاوية والأنفاق والممرات الخفية .. أليستْ هذه أجمل نهاية لرسام .. رسامٌ ينصهر مع لوحاته في مشهد واحد؟

النص - صفحة 295

"كنتُ أدري في تلك اللحظة وأنا أنظر إلى الوهاد العميقة تحتي، إلى تلك الأنفاق الصَّخرية التي يشطرها نهر الرِّمال ببطء زبدي، أن الهاوية أُنثى".

"تُرى .. شهوة السُّقوط والتَّحطم هي التي أشعرتني عندئذ بالدُّوار وأنا معلقٌ على ذلك الجسر وحدي؟".

السياق

جال (خالد) بنظره فوق الجسور والقناطر التي رسمها في أكثر من عشرين لوحة، توحد مع الخيال الذي كان، والواقع الماثل أمامه، مع الفرشاة والطَّبيعة، مع قصة جده الأكبر، مع أسرار الوطن(المدينة)، مع تناقضات الأنثى (حياة).

الفكرة

مدينةٌ تستدرجه إلى العمق مثل أُنثى، موتٌ شبقيٌ أخير، فرصة التَّوحد مع (قسنطينة)، مع ذاكرة جدٍ كان هنا يتوحد بالكرامة المنسية، وحدهم الغرباء يشعرون بالدُّوار فهل صار منهم؟

النص - صفحة 296

"فجأة تطيرتُ منه، وأنا الذي أُولعتُ به طويلاً وحوَّلته إلى ديكور لحياتي".

"أيكون ذلك الإحساس جاءني وأنا ألمح من حيث كنتُ تلك السُّفوح الجبلية التي كانت يومًا مرشوشة بشقائق النُّعمان وأزهار النَّرجس".

السياق

ما يزال (خالد) يتوحد جسدًا وروحًا وذاكرةً بهذه الجسور، يلتحم بها وينفر منها، لم يعد في سفوحها شقائق النُّعمان ولا النَّرجس، فقط .. هاوية أنثوية سحيقة تستدرجه ليموت في الأعماق، أو يبقى أسير الخيبة والجنون.

الفكرة

جاء إلى هذه الجسور بهوس مفتون، جاء بحثًا عن الجنون في مدينة تكاد تحترفه، يتلذذ سِرًا بهذه اللعبة الموجعة، يحاول أن يتفاءل بجسر ويتشاءم بآخر، هذه المدينة بما فيها ومَن فيها منجم جنونه وكنز فنونه.

النص - صفحة 301

"عندما عرفتُ أمنيته البسيطة الصَّعبة حزنت وأنا أكتشف أننا لم نكن متخلفين عن أوروبا وفرنسا فقط .. لقد كنا متخلفين عمَّا كنا عليه منذ نصف قرن".

السياق

يتحدث (خالد) عن شقيقه (حسَّان) مدرس اللُّغة العربية، الذي يعاني من أوضاع صعبة وهو يعول زوجة وستة أولاد، كان في أعماق (حسَّان) مرارة غامضة، لم يكن يجرؤ حتى على الحلم، كان يحلم كيف يحصل على ثلاجة جديدة!

الفكرة

اكتشف (خالد) معاناة الإنسان الجزائري .. العمق الاجتماعي، أوضاع مأساوية على المستوى السِّياسي والاقتصادي، حالة مِن التَّخلف على ما كان عليه الحال قبل نصف قرن، بئس الحال التي تجعل الأحرار يحنون إلى سنوات الاستعمار! أمنية البحث عن ثلاجة ...!!

النص - صفحة 304

"ضحكتُ وأنا أكتشف هذا التَّطرف الذي يذكرني بكِ".

السياق

تحدث (حسَّان) إلى (خالد) عن (ناصر) بن (سي الطاهر) شقيق (حياة)، هذا الأبي الذي قام بهجرة معاكسة، ترك (العاصمة) وعاد إلى (قسنطينة)، رفض الهروب خارج البلد، رفض حتى مواصلة دراسته العليا، معلِلاً أنَّه يرى حوله شبابًا بشهادات عليا عاطلين عن العمل، وآخرين جهلة يتنقلون بـ(المرسيدس) ويسكنون قصورًا فخمة.

الفكرة

تصنع الكاتبة امتدادً تاريخيًا لشخصية المناضل الشَّهيد (سي الطاهر) فأخوه (سي شريف) مهووس بالمناصب والعلاقات، (حياة) مثل (قسنطينة) تستدرج عشاقها لتذهلهم بجسورها ومنحنياتها ولا يهمها إلَّا كيف تبدو في نظر الجميع، (ناصر) المتمرد على هذا الغُثاء السياسي، والبؤس الثَّقافي، قدره اكتناز السَّجايا الأصيلة المتبقية لمدينة لم تعد كما كانت.

النص - صفحة 305

"أنا أعرف حاجًّا (سوكارجي) لا تفارق الخمرة بيته، وأعرف آخر متفرغًا للبزنس؛ هؤلاء ما زالوا يسافرون كل عام للحج".

السياق

اندهش (خالد) وهو يسمع شكوى (حسَّان) عن تلك الأوضاع المزرية، حتى فريضة الحج التي يحلم بها!! لا يمكن الحصول على جواز سفر لأدائها إلَّا بمليوني دينار .. لكنها تذهب تلقائيًا لأشخاص لا علاقة لهم بالحج؛ بل يذهبون لأغراض تجارية.

الفكرة

للمآسي أبعادها المؤلمة! فهي ليست في الجوانب السِّياسية والاقتصادية والاجتماعية وحسب، بل تتعدى إلى الجوانب الدِّينية، لصوص الفساد يقطعون الطَّريق حتى على المتشوقين لأداء فريضة الحج، يحوِّلون مواسمها إلى تجارة دنيوية بحتة.

النص - صفحة 306

"وأما أنا فمن أين لي هذا المبلغ لأقوم بتأدية فريضتي، ودخلي لا يتجاوز الأربعة آلاف دينار في الشَّهر".

"قلتُ له وأنا أنتقل من دهشة إلى أخرى: هل تنوي الحج؟".

السياق

نثر (حسَّان) أحزانه وهمومه في حضرة (خالد)، والأخير مندهشٌ لحالة التَّدين التي يتشبث بها (حسَّان) بل يفتخر بها، يشتاق للحج قلبًا وروحًا وجسدًا.

الفكرة

صاغ (حسَّان) لـ(خالد) معنىً جديدً للإيمان بقوله: لولا إيماني لأصبحتُ مجنونًا، كيف يمكن أن تصمد أمام هذا المنكر وهذا الظُّلم دون إيمان؟ وحدها التَّقوى تعطيك القدرة على الصُّمود، واللهِ يا خالد لو رأيتهم يوم الجمعة يتجهون إلى المساجد بالآلاف حتى تضيق بهم جدرانها، وتفيض بهم الشَّوارع لوقفتَ معهم تصلي دون أن تتساءل لماذا!

النص - صفحة 307

"لم أمنع نفسي ساعتها من الابتسام وأنا أتذكر أنني أحضرت له زجاجتي ويسكي كالعادة".

"تساءلت ليلتها وأنا في فراشي عن ذنوبي .. حاولت أن ألخصها، أن أحصرها ..".

السياق

سمع (خالد) من (حسَّان) في ليلة كاملة ملخصًا لأوضاع البلد، وتشوقه للحج، وعن أشواقه الروحية إلى التَّدين الصافي، كان (خالد) مستمتعًا بالحديث، ترك شقيقه يتكلم .. يعري أمامه الوطن الذي كان كسوته حنينًا وعشقًا وجنونًا.

الفكرة

لم يكن (خالد) يتوقع تدين شقيقه (حسَّان) إلى تلك الدَّرجة، أيضًا (ناصر) كما أخبره (حسَّان)، أخذ (خالد) يقيِّم حالته الدِّينية، أين كان؟ أين يقف؟ أين هو منها؟! كأنه يتشوف مسلكًا مرتقبًا للإنابة .. لعل (حسَّان) كان يستدرجه إلى التَّوبة.

النص - صفحة 308

"وأنا لا أفعل شيئًا في النَّهاية هنا، سوى البحث عن حدٍّ لهذا المد والجزر العاطفي الذي أعيشه معك كل لحظة".

السياق

تأثر (خالد) بالسُّلوك الدِّيني لـ(حسَّان)، وأخذ يفكر بـ(حياة)! هل كانت سبب توبة أم دافع معصية؟ هل يستطيع وضع حد لذلك الجنون العاطفي أو تلك النِّقمة المتوحشة؟!

الفكرة

كانت (حياة) المبرر الذي جعله يحبها، ثم هي نفس المبرر الذي يجبره على العدول عن حبها، ها هو يعيش أيامه بين الانجذاب والعزوف .. بنفس القوة .. بنفس التَّطرف.

النص - صفحة 310

"أجبتها وأنا أغلق خلفي الباب، وكأنني أغلق بعنف أبواب قلبي".

"أين أهرب؟ ها أنا أوصدتُ الباب خلفي، وإذًا لا شيء أمامي .. سواي!".

السياق

كانت (عتيقة) زوجة (حسَّان) تشرح لـ(خالد) خطوات تجهيز عرس (حياة)، تحدثه عن لوازم العرس الفخم الذي يأتي من (فرنسا) بشكل يومي؛ فيجيبها (خالد) وهو يخرج مكدودًا: البلد لهم، والطَّائرات أيضًا، ويمكنهم أن يجلبوا إليه كما أخذوا منه ما شاءوا .. وغادر عتبة الباب غاضبًا.

الفكرة

خرج مغاضبًا .. ربما مِن خيبة الحب، أو مِن تجاهل المحبوبة، خرج وأوصد الباب بعنف ليعبِّر عن حالة نفسية مضطربة، خرج يطوف صخور المدينة مثل جَمَلٍ مغمض العينين .. يدور دون توقف.

النص - صفحة 311

"وأنا .. تراني لم أعد أعرف المشي إلى الأمام في خطٍّ مستقيم لا يعود بي تلقائيًا إلى الوراء .. إلى هذا الوطن الذَّاكرة؟".

السياق

توقف (خالد) أمام دوران جَمَلٍ معصوب العينين يستخرج الماء من بئرها في ساحة (سيدي بو سعيد)، يتوهم المسكين أنَّه يمشي إلى الأمام دائمًا، بينما هو يدور في حلقة مفرغة، وسيقضي عمره ماشيًا في هذه الدَّائرة المحدودة .. تجاوز (خالد) هذا المشهد وواصل خطاه بين آثار المدينة وماضيها وكأنه جَمَلٌ معصوب العينين.

الفكرة

ترانا أصبحنا ذلك الجَمَل الذي لا يكاد ينتهي من دورة حتى يبدأ فيها، جرائد الأخبار تعصب عيوننا بوعودها، مِن أين جاءت هذه القدرة على لَيِّ المستقيمات وتحويلها إلى دوائر، الذَّاكرة سياج دائري يحيط بنا مِن كل جانب، ها نحن نمشي إلى الماضي معصوبي العيون!

النص - صفحة 312

"وحيث كنتُ ألمح أبي أحيانًا وأنا أمر بهذا الطَّريق".

السياق

سار (خالد) في أحياء (قسنطينة) القديمة، يستذكر الأماكن الشَّهيرة والمقاهي العتيقة، الأسماء الكبيرة والمواقف العظيمة، لقد كبرت المدينة وتغير كل شيء فيها، تذكر الطَّريق الذي كان يسير به والده ذهابًا وإيابًا.

الفكرة

كان يرى مدينته بعيون الماضي وخيبة الحاضر، يشبههم تمامًا .. يمتلك الوقت والرُّجولة ولا يدري ما يفعل بها، يمشي مثلهم محملاً ببؤسه الحضاري وبؤسه الجنسي، خطاه كخطاهم ضائعة على الأرصفة.

النص - صفحة 317

"مريض أنا بك قسنطينة! كان موعدنا وصفة جربتها للشفاء، فقتلتني الوصفة".

"لقد صنعتك أنا بنفسي، وقِستُ كل تفاصيلك على مقاييسي".

السياق

طاف المدينة، توقف عند بيوتها المشبوهة، لقد أُغلقت هذه الأماكن لتقليص الملذات في المدينة واحترامًا لعشرات المساجد التي بُنِيت لتذكر النَّاس بالله. خيال (حياة) يحضر في هذ الحميمية العاطفية، مزيج مِن التَّناقض والجنون .. مِن الطَّهارة والخطيئة .. مِن الاتزان والهذيان.

الفكرة

وقف (خالد) في الحد الفاصل بين شهوة الجسد وعفة الرُّوح، يجذبه إلى القاع صوتٌ شبقيٌ مِن غرفٍ مدنسة بالخطايا، ويسمو به إلى العلياء نداء آخر ينبعث مِن فم المآذن الطاهرة. مدينةٌ تستدرجه إلى الخطيئة ثم تردعه بنفس القوة والحماس.

النص - صفحة 319

"ولدتْ كل هذه الأفكار في ذهني وأنا أعبر ذلك الشَّارع، وألتقي بعد سبع وثلاثين سنة مع جدران سجن كنتُ يومًا أراها مِن الدَّاخل".

السياق

مرَّ في جولته بطرقٍ ذكرته بعروبة الجزائر، برجال كانوا أيقونة الثورة والحرية .. (بن باديس) ورفاقه الأبطال، ها هو أمام سجن (الكُديا) الذي كان نزيله مع رفاق النِّضال.

الفكرة

معاودة السَّير في شوارع النِّضال يبعث الذِّكريات مِن هجعتها السرمدية؛ كأنك تمشي مع العروبة في أزهى عصورها، المجد والفخار والأشواق .. لا يمكن أن تنتمي لهذه المدينة دون أن تحمل هويتها، العروبة هنا .. زَهوٌ ووجاهةٌ .. قرونٌ مِن التَّحدي والصمود.

النص - صفحة 321

"أذكر أنَّه كان يستوقفني وأنا أمر بمحله متجهًا إلى ثانوية (قسنطينة)، فيعرض عليَّ قراءة جريدة (الأمة) أو منشورًا سريًا".

السياق

يستذكر (خالد) في تجواله داخل المدينة ذلك البطل: (بلال حسين) .. كان يعمل نجارًا، وكان محلُّه القائم تحت جسر (سيدي راشد) مقرًا للاجتماعات السِّرية لقادة التحرير.

الفكرة

(بلال حسين) نموذجًا لأولئك الأبطال الذين دفعوا ضريبة فادحة من أجل الاستقلال، ثم نسيهم سُراق الثورات وناهبي الأوطان. تعرض (بلال حسين) لأقسى أنواع التَّعذيب، التصق جلده على آلات السلخ والتنكيل، ثم أخرجوه محكومًا عليه بالنَّفي والرَّقابة الشَّديدة، وظل ملاحقًا مطاردًا، وبعد الاستقلال بستٍ وعشرين سنة مات بائسًا، وأعمى، ومحرومًا مِن المال والبنين.

النص - صفحة 324

"كنا آنذاك .. أنا وهو، أصغر معتقلَين سياسيين، وربما كان (ياسين) يصغرني ببضعة أشهر".

السياق

مِن أمام سجن (الكُديا) تذكر (خالد) رفيق نضاله (ياسين)، ذلك الجسور الذي رفض الاستعمار إطلاق سراحه؛ بينما أفرج عن (خالد)، فظل (ياسين) في سجنه يحلم بالحرية وبامرأة تكبره بعشرة أعوام اسمها (نجمة).

الفكرة

أُطلق سراح (خالد) لصغر سنه، ولم يطلق سراح (ياسين) رغم أنَّه أصغر سنًا؛ ظل (ياسين) سجينًا .. ليكون الأكثر شهرة في حقبة النِّضال الجزائري؛ لأنَّه كان مسكونًا بالرَّفض وبرغبة في التَّحريض والمواجهة.

النص - صفحة 325

"وبينما عدتُ أنا بعد ستة أشهر مِن السِّجن إلى الدِّراسة، راح (ياسين) يكتب بعد عدَّة سنوات رائعته (نجمة)".

السياق

كانت عدوى (ياسين) الثورية تنتقل من سجن إلى سجن، ومِن مكان إلى آخر، كان (الجزائر) حينها يشهد ميلاد شاعر سيكون يومًا أكبر ما أنجب الوطن مِن مواهب.

الفكرة

(نجمة) .. الرِّواية الفجيعة، ولدتْ فكرتها الأولى في سجن (الكُديا)، في ذلك الليل الطَّويل، في مخاض المرارة والخيبة، في متاهة الأحلام والحفرة السحيقة.

النص - صفحة 328

"أدري أنهم يعدونك الآن لليلة حبك القادمة، يعدون جسدك لرجل آخر ليس أنا، بينما أهيم أنا على جرحي لأنسى الذي يحدث هناك".

السياق

طاف (خالد) شوارع (قسنطينة) العتيقة، لاحق الذِّكريات الشَّاردة .. السِّنين الأليمة .. يوميات الطُّفولة والنِّضال والكفاح العزيز .. ثم تيقظ فجأة .. عاد مِن زخم الذِّكريات الهائلة إلى التفكير بمصيدة (حياة) .. غدًا عرسها إذن!

الفكرة

تأخذه الذِّكريات إلى الماضي البعيد فرحًا وحزنًا؛ ويجره الواقع المرير جبرًا وقهرًا. تقفز (حياة) إلى خياله .. فيسأل دون سؤال: أين تكونين الآن إذن؟ في أي شارع؟ في أيِّ زقاق مِن هذه المدينة المتشعبة كقلبك؟

النص - صفحة 330

"لم أجهش ساعتها بالبكاء وأنا أقف أمامها بعد كل ذلك العمر".

السياق

أنهى (خالد) جولته في المدينة بزيارة المقبرة، وقف على قبر (أمه)، عند قبرها الرُّخامي البسيط مثلها، البارد كسجيتها، المُغبر مثل أيامها، تسمَّرت قدماه، تجمدت الدُّموع التي خبأها لها منذ سنوات الصَّقيع والخيبة.

الفكرة

ها هي ذي (أمَّا) شبرٌ مِن تراب، لوحة رخامية تخفي كنوز العواطف الرحيمة، صدر الأمومة الحاني، رائحتها، خصلات شَعرها المحنَّاة، طلتها، ضحكتها، حزنها، ووصاياها الدَّائمة .. لو بكيتُ الآن لأجهش البكاء نفسه، لو توسَّدت حجره البارد لصعد من تحته ما يكفي من الدِّفء لمواساتي، لو ناديته يا (أمَّا) لأجابني ترابه مفجوعًا.

النص - صفحة 332

"بعدما قضيتُ أسبوعًا وأنا أهيم على وجهي في تلك المدينة التي كانت تتربص بذاكرتي في كل شارع .. وكنتِ تختبئين لي فيها خلف كل منعطف".

السياق

في صباح يوم العرس كان (خالد) مسجونًا في جلده! لا يريد الخروج ولا يقدر على الفرا ر، قرر أن يلزم سريره حتى يعود (حسَّان) عند الظَّهيرة فيذهبا سويًا، كان مجهدًا بعد تطواف الأمس في حارات المدينة وأزقتها.

الفكرة

كان الأمس يومًا جميلاً وكئيبًا، ما تزال أصداء الذِّكريات التي استعادها ترن في داخله بكل أجراسها وأشواقها، بكل حنينها المعجون بالحب والحقد والكراهية.

النص - صفحة 333

"أنا الذي لم أرفع يدي الوحيدة في وجه امرأة، ربَّما كنتُ ضربتك ذلك اليوم حدَّ الألم، ثم أحببتك حدَّ الألم".

السياق

وحيدًا في غرفته، إلى جوار فراغه المتوحش، تداهمه الخيالات والأماني الجوفاء، صباح هو الأسوأ بين كل الصَّباحات الماضية والآتية، هواجس الوحدة تتحدث بلسان (خالد): لو كنتِ لي .. لامتلكتكِ كما لم أمتلك امرأة هنا، لاعتصرتكِ بيدي الوحيدة في لحظة جنون، لحولتك إلى قطع، إلى مواد أولية، إلى بقايا امرأة، إلى عجينة تصلح لصنع امرأة، إلى أي شيء غيركِ أنتِ.

الفكرة

في لحظات الخيبة النفسية تقتحم أرواحنا موجات من الأفكار السيئة؛ كأنها قطعان الحُمر الوحشية .. تستبيح هدوءنا وسلامنا، وحياتنا الواقعية.

النص - صفحة 335

"شعرتُ بشيء من الارتياح وأنا أكتشف أنني برغم كل ما حلَّ بي ما زلت أحترم جسدي".

السياق

في خضم الهواجس المتصارعة رمى (خالد) بغطاء السَّرير واتجه نحو النَّافذة .. أشرعها ليُخرج منها طيف (حياة) .. ليدخل مكانه ضياء (قسنطينة)، وقتها كان صوت الأذان يرتفع مِن مآذن المدينة بمقام متناسق.

الفكرة

في صباح يوم العرس كان (خالد) يتنقل داخل سجنه الجسدي مثل عصفور في قفص، متوتر الحسِّ والنَّفس والأعصاب، تتناوبه حالات اليأس والشموخ، تتقاسمه لحظات الوقار والجنون.

النص - صفحة 339

"قلتُ وأنا أزداد فضولًا: لماذا؟ قال: إنَّه ضدَّ هذا الزَّواج".

السياق

كان (حسَّان) يهاتف (خالد) ليتأكد مِن استعداه للخروج، أعلمه أنَّه سيتأخر قليلاً لأن مشكلة طرأت في الحال .. (ناصر) شقيق (حياة) يرفض الحضور ويرفض هذا الزَّواج برمته .. الموقف حرج للغاية يا (خالد).

الفكرة

نستأنس بالعقبات المفاجئة؛ كأنها تمدنا بأمل طارئ!! تنفرج أسارير (خالد) لظهور مشكلة عارضة في طريق هذا الزَّواج النَّفعي، قال في نفسه وهو يرد على انزعاج (حسَّان): (ناصر) معه حق .. وفي ذات اللحظة استحضر شخصية (سي الطَّاهر) والد (حياة) .. تساءل: (ناصر) ؟! أيكون (ناصر) نسخة مِن أبيه؟

النص - صفحة 342

"لو خلَّف هتلر ابنة في هذا العالم .. لكنتِ ابنته الشَّرعية!! ضحكتِ يومها .. وعلقتُ أنا بسذاجة الضَّحية: لا أدري ما الذي أوصلني إلى حبكِ!".

"أنا الهارب من حكم الجبابرة، أيمكن بعد هذا العمر أن أقع في حبِّ امرأة طاغية!".

السياق

استأنس (خالد) بوجود مَن يشاركه الرَّفض الخفي أو الظَّاهر لمشروع هذا الزَّواج، في هذه اللحظة تخيَّل (حياة) امرأة طاغية بذاتها، تذكر حوارًا كان قد دار بينهما حول هذا المعنى.

الفكرة

يختلط الحب بالحنين، المرأة بالوطن، الذَّاكرة بالألم .. تأوه (خالد) وهو يردد: إذًا لن يحضر أحد ممن أحبكِ! لا (سي الطاهر) ولا (زياد) ولا (ناصر)، لماذا وحدي وقَعتْ عليَّ تلك القرعة؟ وقادتني الأقدار إليكِ! لماذا استدرجتِني حتى هنا باسم الذَّاكرة والحنين؟ لقد صدَّقتُكِ وجِئت .. كنتُ أدري أنَّك تكذبين، أدري أنكِ تهدينني الغيوم البيضاء لصيفٍ طويل.

النص - صفحة 344

"وها أنا أفتح على شرفك زجاجتي الأخيرة، وأرتكب جنوني الأخير، فلا أعتقد أنني قد أسكر بعد اليوم".

"أنا .. وأنتِ .. وهذه المدينة".

السياق

بعد تراوحٍ بين اليأس والأمل وصل (خالد) إلى حافة خطيرة مِن الانهيارٍ النَّفسي، عذابات رهيبة مع الذَّات والحنين والذَّاكرة .. انزلق معها إلى هاوية كئيبة.

الفكرة

تتحول اللحظات إلى خصم لدود .. حتى المدينة والذِّكريات تتواطأ بتطرف وجنون .. مدينة تتلذذ بتعذيب أولادها، حبلت بنا دون جهد، وضعتنا كما تضع سلحفاة بحرية أولادها عند شاطئ وتمضي دون اكتراث، تسلمهم طواعية لرحمة الأمواج والطُّيور البحرية .. ها نحن سلحفاة تنام على ظهرها .. قلبوها حتى لا تهرب، قلبوها في محاولة انقلاب على المنطق.

النص - صفحة 345

"ابتسمت وأنا أكتشف مرة أخرى قدرة هذه المدينة على زجَّ الصُّور الجنسية في كل شيء .. وذلك ببراءة مدهشة".

السياق

عاد (حسَّان) مِن المسجد ليصحب (خالدًا) إلى العرس فوجده على حال لم يكن فيها مهيأ لحضور مناسبة ضخمة وقد جاء مِن (فرنسا) لأجلها، عاتبه قائلاً: المدينة قائمة قاعدة بحدثها الاستثنائي وأنت غير مبالٍ .. عندها تبسم (خالد) ساخرًا من كل شيء!!

الفكرة

سخرية تنصب على كل شيء، حتى على المدينة ومَن فيها! قال (خالد) يخاطب شقيقه: هذه هي الجزائر يا (حسَّان)!! البعض يصلي والبعض يسكر .. وآخرون - أثناء ذلك - يأخذون البلاد!!

النص - صفحة 346

"كنتُ أحتسي تلك القهوة حتى يطير سكري .. كنتُ أشعر في الواقع أنني أزداد سكرًا أو جنونًا وأنا أستمع إليه".

السياق

سأل (خالد) (حسَّانًا) وهو يحتسي القهوة قبل خروجه عن أسباب مقاطعة (ناصر) لعرس شقيقته (حياة)، فشرح (حسَّان) تلك الأسباب والمبررات التي يؤمن بها (ناصر).

الفكرة

لـ(ناصر) مبررات ترتبط بأبعاد فكرية وفلسفية .. لهذا العرس أهدافٌ وصوليّة ومطامع سياسية محضة، العريس سيء الصِّيت أخلاقيًا واجتماعيًا .. عُملات وصفقات وحسابات مشبوهة .. عشيقات محلية وخارجية .. أنانية قبيحة تدمر أسوار القيم الرفيعة.

النص - صفحة 349

"معظم الزَّائرات موظفات في الاتحادات الحزبية أو مناضلات .. وكدت أسأله وأنا أرى إحداهن تمر أمامي".

"لو كنت أملك الخيار لزوجت ابنتي مِن واحد يمكنه بهاتف أن يأتيها بكل شيء على أن أعطيها لواحد مثلي يعيش معها البؤس كما أعيش أنا".

السياق

أخذ (حسَّان) يحدث (خالدًا) عن المأساة الاجتماعية التي تعيشها (الجزائر)، أصبحت المرأة عنصرًا مهمًا في تسهيل المعاملات، واستخراج القرارات، والحصول على شُقةٍ أو وظيفة، خَلَقَ البسطاء لأنفسهم عملة جديدة للتداول .. خذ امرأة مقابل ما نريد!!

الفكرة

(حسَّان) يبارك هذا الزَّواج كي يحافظ على مسار العلاقات الشَّرعية مهما كانت الأسباب والدَّوافع، أما كون العريس سارقًا وناهبًا لأملاك الدَّولة فماذا تريد أن نفعل؟ كلهم سرَّاقٌ ومحتالون .. هناك مَن افتضح أمره وهناك مَن عرف كيف يحافظ على مظهرٍ محترم برغم الجوهر القبيح!!

النص - صفحة 350

"أُصبتُ بذهول وأنا أستمع إليه".

السياق

ذهل (خالد) وهو يستمع إلى توصيف (حسَّان) وتحليله للأوضاع الاجتماعية .. كيف استُغِلت المرأة لتحقيق أمزجة الشَّخصيات الأنانية ومرضى النُّفوس .. الطَّامحون إلى المناصب العليا والثَّراء الفاحش .. المتسلقون على ظهور الضعفاء والمساكين.

الفكرة

النظرة الحكيمة .. بعيدة المدى، طيبة الأثر .. تتجاوز الرَّغبات الجنسية وجوع الشَّهوات، تكلم (حسَّان) عن جذور المأساة، وكيف تخلت المرأة عن واجبها الكبير في تكوين المجتمع وتربيته، عن حفظ النَّسل وصيانته، ويتساءل .. كيف استطاع تجار السِّياسية استغلال هذه الحورية البريئة في تحقيق رغباتهم الأنانية؟؟

النص - صفحة 353

"تدخلين في موكب نسائي يحترف البهجة والفرح، كما أحترف أنا الرَّسم والحزن".

السياق

تواجد (خالد) في موكب العرس، شاهد الفخامة والأُبهة التي رافقت خروج العروسة (حياة)، كان الجميع في عالم يبتهج بالأفراح، وحده كان في عالم سحيقٍ مِن البؤس والشَّقاء.

الفكرة

عبَّر (خالد) عن فكرة بائسة: يمتلئ البيت زغاريدَ ويمتلئ صدري بدخان السَّجائر التي أُحرقها وتحرقني .. أراكِ لأول مرة بعد أشهر الغيبة الطويلة، تمرين قريبة وبعيدة!! كنجمة هاربة تسيرين .. مثقلة الأثواب والخطى، كنتِ بين الزَّغاريد .. أغنية تستفز ذاكرتي .. عيناك بعيدتان .. يفصلني عنهما دمع الضَّباب .. وماء السراب.

النص - صفحة 355

"أعرفهم .. وأتجاهل معظمهم .. ما تقول أنا .. حتى يموت كبار الحارة".

السياق

في العرس الكبير لـ(حياة) سخر (خالد) من تواجد البطون المنتفخة .. كبار اللصوص .. أصحاب الحقائب الدبلوماسية والمهمات المشبوهة والماضي المجهول، يعرفهم جيدًا لكنَّه تجاهلهم!

الفكرة

(حياة) .. رمز أثير، استسلم للنفعيين وسُرَّاق الأحلام، موكب الوصوليِّين حاضر بقوة، مجتمعون كأسماك القرش .. ملتفون حول الولائم المشبوهة .. ما أتعسهم في غِناهم وفقرهم، في علمهم وجهلهم، في صعودهم السَّريع .. وفي انحدارهم المريع.

النص - صفحة 356

"أتذكر وأنا أستمع لهذه الكلمات، أغنية عصرية أخرى وصلتني".

السياق

كان الجميع يتمايل مع الدفوف والطرب الصَّاخب و(خالد) منصرف إلى تحليل الكلمات والأغاني (صالح يا صالح .. وعيونك عجبوني) ويربط مغزاها (بصالح باي) آخر بايات الجزائر القديم.

الفكرة

إيه (قسنطينة) .. لكل زمان (صالحه)، ولكن ليس كل (صالح) بايًا .. هو ذا الوطن الآخر أمامي .. في كل مجلس وجوه أعرف الكثير عنها .. أتأملهم!! استمع إليهم يشكون ويتذمرون!! لا أحد سعيد منهم!! المدهش أنهم هم دائمًا الذين يبادرونك بالشَّكوى ونقد الأوضاع وشتم الوطن، كأنهم لم يركضوا جميعًا خلف مناصبهم زحفًا على كل شيء، كأنهم ليسوا جزءًا مِن قذارة الوطن.

النص - صفحة 357

"مثل (سي حسين) الذي أعرفه جيدًا، كان مديرًا لإحدى المؤسسات الثَّقافية، يوم كنتُ أنا مديرًا للنشر، وإذا به بين ليلة وضحاها يعين سفيرًا في الخارج".

السياق

بقي (خالد) يكابد ساعات الفرح الكئيب، يتفحص الوجوه والقامات المتواجدة في العرس، معظمهم أصبح وزيرًا أو سفيرًا بطريقة أو بأخرى.

الفكرة

عرسكِ الذي دعوتِني إليه .. إنَّه (السِّيرك عمَّار) سِيرك لا مكان فيه إلَّا للمهرجين، لمن يحترفون الألعاب البهلوانية .. القفز على المراحل، القفز على الرِّقاب، القفز على القيم .. سِيرك يضحك فيه حفنة على ذقون النَّاس، ويُروَّض فيه شعب بأكمله على الغباء!!

النص - صفحة 360

"دعيني أحلم أنَّ الزَّمن توقف .. وأنَّكِ لي .. أنا الذي قد أموت دون أن يكون لي عروس، ودون أن تنطلق الزَّغاريد يومًا مِن أجلي".

السياق

وسط الزخم العرائسي الكبير انفرد (خالد) روحًا وشاركهم جسدًا، عاش حوارًا خياليًا مع (حياة)، مع (قسنطينة)، مع أوليائها الصَّالحين، تخيَّل نفسه لو أنَّه ذلك البطل الخرافي (خطاف العرائس) كي يخطفها مِن (قسنطينة) .. لكن ذلك لن يحصل .. عليه أن يقضي سهرته في حضرة الأحلام والبؤس، مع طيف الأولياء وبقايا المدينة، وأطراف الضَّواحي.

الفكرة

في ضجيج الأسى تصرخ (الأنا) في وجه المدينة: (قسنطينة) الأثواب .. مهلاً! ما هكذا تمر القصائد على عجل! ثوبك المطرز بخيوط الذَّهب .. لو كنتِ لي لباركتنا الحواري، لخرج مِن كل شارع عبرناه وليٌّ يحرق البخور في طريقنا؛ لكن ما أحزن اللَّيلة!! ما أتعس أولياءها الصَّالحين، وحدهم جلسوا إلى طاولتي دون سبب واضح، حجزوا لذاكرتي الأخرى كرسيًا أماميًّا، وإذا بي أقضي سهرتي في السَّلام عليهم واحدًا واحدًا.

النص - صفحة 361

"أنا سيدي عيساوي .. يجرح ويداوي .. مَن يداويني يا أبي .. مَن؟".

السياق

الولي (عيساوي) مِن جملة الأولياء الذين تذكرهم (خالد) في ليلة البكاء الصَّامت، في ليل الفراق والوداع .. أبي يا (عيساوي) أبًا عن جد؟ أنت الذي تمرر حديدًا ملتهبًا محمرًا كقطعة جمر، فينطفئ جمره مِن لعابك ولا يحترق! علمني الليلة كيف أتعذب دون أن أنزف، علمني كيف أذكر اسمها دون أن يحترق لساني.

الفكرة

القوة الروحية ملاذ أخير في مواجهة الكروب والمتاعب، الروح المؤمنة قلعة أخيرة نتحصن فيها مِن ضعفنا المتهاوي، نحتمي بها مِن يأسنا وعجزنا.

النص - صفحة 364

"من منا الثَّور؟ أنتِ أم أنا المصاب بعمى الألوان؟ والذي لا يرى الآن غير اللَّون الأحمر .. لون دمك".

السياق

شبَّه (خالد) ليلة الزِّفاف تلك بمضمار يشهد مصارعة للثيران .. الثَّور الهائج بقرونٍ حادة، وذلك الفارس يخادعه بقطيفة حمراء .. من يكون الثَّور ومَن المخادع؟ يا ترى مَن المصاب بعمى الألوان؟

الفكرة

هذه البكر العذراء فضحت شكوك (خالد) وسوء ظنه بمن حوله، حتى بصديقه الميت (زياد)، (حياة) كانت له طفلة بريئة ولغيره أنثى نظيفة .. مدينة فُتحت اليوم عنوة بأقدام العسكر ككل مدينة عربية!!

النص - صفحة 368

"أنا لا أريد أكثر من أن أهرب من التَّعليم، وأن أستلم وظيفة محترمة في أيِّة مؤسسة ثقافية أو إعلامية، أيِّة وظيفة أعيش منها أنا وعائلتي، حياة شبه عادية".

"أنا عاجزٌ حتى عن شراء سيارة".

السياق

تعود الرواية ثانية إلى حكاية (حسَّان) شقيق (خالد) وأستاذ اللغة العربية، ينثر معاناته كيفما اتفق الأمر، يتحسر وهو يرى توافد الحاضرين إلى عرس (حياة)، سيارات فخمة، ومباهاة بالثَّراء والمناصب .. الكثير منهم لا يحمل مؤهلاً ولا شهادة جامعية!!

الفكرة

المعلم .. نموذج بارز لكل زملاء المهنة .. يركب الحافلة مع تلاميذه، يزاحم مثلهم، يشتمه النَّاس أمامهم، يعود مثلهم ولكن ليُعدَّ دروس الغد ويصحح الامتحانات، يسكن في شقة بغرفتين مع أفراد عائلته الثمانية، بينما هناك مَن يملك شقتين وثلاثًا بحكم وظيفته أو وساطاته .. يتذكر الحال ويفقد في ذاته شهية التعليم والتعلم.

النص - صفحة 369

"اطلب شيئًا يا (خالد) ما دمتَ هنا، ألستَ مجاهدًا؟ ألم تفقد ذراعك في هذه الحرب؟ هذا حقك .. وإذا شئت دعه لي لأستفيد منه وأعيش عليه أنا وأولادي".

"أنت يحترمونك ويعرفونك، وأما أنا فلا يعرفني أحد .. أنتَ تحمل شهادتك على جسدك".

السياق

اقترح (حسَّان) على (خالد) أن يطلب من الحكومة أن تمنحه محلاً تجاريًا أو شاحنة، ولن تتردد الحكومة في إعطائه كونه أحد المناضلين المشهورين، لكن (خالد) رفض المقترح جملة وتفصيلاً، كان يمكن ذلك بعد الاستقلال أما الآن فلا.

الفكرة

عصيًا عنيدًا .. هيهات أن يطأطئ رأسه لأحد بعد مرور هذه السَّنوات .. قال لـ(حسَّان): أُريد أن أبقى هكذا أمامهم، مغروسًا كشوكة في ضميرهم، أُريد أن يخجلوا عندما يلتقون بي، أن يطأطئوا رؤوسهم وهم يسألون عن أخباري .. هم يعرفون أنني أعرف كل أخبارهم، وأنني شاهدٌ على حقارتهم.

النص - صفحة 370

"ولكن كيف لي أن أعرف ذلك وأنا لم أزره منذ سنوات؟".

السياق

بعد هجرة طويلة عن (قسنطينة) رثى (خالد) لشقيقه (حسَّان)، اكتشف ما لم يكن يتوقعه، اكتشف أن أخاه يعيش حالة بائسة، اكتشف عجزه عن تحقيق أحلامه البسيطة .. ثلاجة أو سيارة .. وعَدَه أن يشتري له سيارة .. فرح (حسَّان) كطفل .. وكأن حلمه الكبير قد تحقق.

الفكرة

في زمن الأوجاع البائسة تتحول الاحتياجات الضرورية إلى أحلام كبيرة؛ يتذكر (خالد) التفاتته لأخيه فيشعر بالسَّعادة، يتذكر أنه أسعده لبعض الوقت .. منحه راحة لبضع سنوات.

النص - صفحة 371

"وجدتُ نفسي مرةً أخرى أواجه قدري معكِ، أنا الذي قررتُ السَّفر على عجلٍ حتى أنتهي من العيش في هذه الأجواء التي كانت تدور كلها بطريقة أو بأخرى حولك".

"ها أنا مرةً أخرى ألبس بدلتي السَّوداء نفسها، أحمل لوحة توقفت أمامها يومًا وكانت سبب كل ما حل بي بعد ذلك".

السياق

قرر (خالد) مغادرة (قسنطينة) فور انتهاء مراسيم العرس؛ ليقطع سيل الأحزان المتدفق على قلبه؛ لكن (سي شريف) دعاه إلى الغداء قبل سفره، لم يجد بُدًا مِن الذِّهاب ثانية مع أخيه (حسَّان).

الفكرة

البدلة السَّوداء نفسها .. ثوب حداد في يوم فرح .. حمل معه لوحة مِن جسور (قسنطينة) وقناطرها المعلقة ليهديها للعروس، ربما هي محاولة للتخلص من مساحة هائلة في الذَّاكرة اسمها (قسنطينة)؛ لقد باتت تعذبه بذكرياتها ومواقفها وواقعها الحالي، سيتخلص منها برمزية لوحة يدفعها لمن أحب وكره، لمن انجذب إليه وفر منه.

النص - صفحة 372

"أكثر اللحظات وجعًا .. جنونًا .. سخرية .. تلك التي وقفتُ فيها لأسلم عليك .. وأنا أهنئك بالزَّواج".

السياق

ذهب (خالد) مرغمًا، وسلم على (حياة) وبارك زواجها، وكانا معًا يجيدان التَّمثيل وكأن أحدهما لم يعرف الآخر إلَّا مرة على هامش موقف عابر.

الفكرة

عاش لحظات حبها الأخير، لم يكن همه وقتها سِوى أن يراها وأن ينتهي منها في الوقت نفسه، قال إنَّه يخاف حبها .. يخاف أن يشتعل ثانية مِن رماده، فالحبُ الكبير يظل مخيفًا حتى في لحظات موته .. يظل خطرًا حتى وهو يحتضر.

النص - صفحة 373

"في تلك اللحظة التي كان فيها الحديث يدور حول المدن التي ستزورها في شهر العسل .. وكنتُ أنا أشيعك بصمت لسفرك الأخير عن قلبي".

"لقد كانت تلك هزيمتك الأولى معي .. انتهى كل شيء إذن .. ها أنا قابلتك أخيرًا".

السياق

لقاءٌ أخيرٌ بين (خالد) و(حياة)، ستغادر (حياة) مع زوجها لقضاء شهر العسل في أكثر من بلدة ومدينة، وسيبقى (خالد) كعادته منفيًا عن أحلامه وعن ذاكرته وعن وطنه.

الفكرة

لقاء أخير .. نظرات تزدحم بالأشواق والحقد وشهوة الانتقام، نصف نظرة بين نظرتين خاطفة تزرع بذرة جديدة للوجع والأسى المكبوت، لعل هذا الفراق المرئي مشروع للوحات رسم قادمة، لذاكرة مشتركة .. لمدينة تواطأت بجسورها مع الكل ضد الكل.

النص - صفحة 374

"ودون كثير مِن التَّردد أو التعمق في التَّفكير قررتُ أن أمزقها فورًا ما دمتُ أملك القدرة على ذلك، وما دمتُ مصممًا على أن ينتهي كل شيء هنا في (قسنطينة) كما أردتِ يومًا .. وكما أصبحتُ أريد أنا اليوم".

السياق

عند افتراقهم كان (سي مصطفى) زوج (حياة) قد سلم (خالد) بطاقة عليها عناوينه وأرقام الهواتف .. لكن (خالد) مزقها عندما وصل إلى البيت، بعد أن ظل يتحسسها طوال الطَّريق، شعر وقتها أن (حياة) انتقلت من قلبه إلى جيبه على شكل اسم ورقم هاتف جديد!

الفكرة

مذاق ساخر وبطاقة مستفزة، عليه أن يمزقها، هذه (حياة) استدرجته إلى هذه المدينة ذات الجسور والمنحنيات الملتوية لتُنهي قصة حبهما، كما يحلو لها أن تقتل أبطالها في تلك الرِّوايات التي تكتبها.

النص - صفحة 375

"أنا لم أهبك شيئًا، لقد أعدتُ لكِ لوحة كانت جاهزة لكِ منذ خمس وعشرين سنة، إنها هدية قدرنا الذي تقاطع يومًا، أما أنا فلي هدية أخرى لك أتوقع أن تعجبكِ، سأقدمها لكِ ذات يوم.

السياق

قبل سفر (حياة) مع زوجها لقضاء شهر العسل اتصلت تبحث عن (خالد) أجابها (حسَّان) وأعطى سماعة الهاتف لـ(خالد)، شكرته على هديته الكبيرة، تلك اللوحة لـ(قسنطينة) بجسورها السَّاحرة، لكن (خالد) أجابها أن هذه لوحتها هي، أما هديته ستأتيها فيما بعد.

الفكرة

اللوحة التي أعطاها (خالد) لـ(حياة) ترميز بديع للذَّاكرة، خطوطها وألوانها وظِلالها، تاريخٌ للمدينة المسكونة بالشموخ والنضال، تلميح للابتذال والوفاء والخيانة، أما هديته التي سيقدمها لها فيما بعد فهي هذه الرِّواية بذاتها .. ليكشف لها ما كان بينه وبينها، وما بين الوطن وأبنائه.

النص - صفحة 376

"أجبتك بصوتٍ غائب: أنا لا أعني شيئًا بالتَّحديد .. إنَّه عنوان لرواية أخرى للكتاب نفسه!".

السياق

تخلل مهاتفة (حياة) لـ(خالد) شيءٌ من العشق المنحط خلف جدار الذَّاكرة، قالت وقد صمتا معًا صمتًا مريبًا: لماذا لا تجيب؟ فأجابها بذبول وخمود: لأن رصيف الأزهار لم يعد يجيب، ثم تدارك ما قاله بأن هذه (العبارة) عنوان آخر لرواية أخرى.

الفكرة

في الاتصال الأخير بينهما .. خاطب (خالد) سماعة الهاتف المغلقة: لا تطرقي الباب كل هذا الطَّرق .. فلم أعد هنا .. لا تحاولي أن تعودي إليَّ مِن الأبواب الخلفية، ومن ثقوب الذَّاكرة، وثنايا الأحلام المطوية، لا تعودي مِن تلك الشَّبابيك التي أشرعتها للعواصف.

النص - صفحة 377

"لقد تخلت عني الجدران يوم تخليتُ عنكِ، وانهار السَّقف عليَّ وأنا أحاول أن أهرِّب أشيائي المبعثرة".

"متعبٌ أنا .. كجسور (قسنطينة)، معلقٌ أنا مثلها بين صخرتين وبين رصيفين".

"فلماذا كل هذا الألم؟ ولماذا .. أكذب الأمهات أنتِ، وأحمق العشاق أنا!".

"لا تطرقي أبواب (قسنطينة) الواحد بعد الآخر، أنا لا أسكن هذه المدينة، إنَّها هي التي تسكنني".

السياق

انقطاع التَّواصل بين المحب والمحبوبة فتح أبوابًا مشرعةً على كل محبوب غير الأنثى، تائهٌ يناشد مدينة ومحبوبة وذاكرة مبعثرة: لا تطرقي الباب كل هذا الطَّرق سيدتي؛ فلم يعد لي باب! ألا تدرين أنني أسكن هذا الوادي بعدك كما يسكن الحصى جوف (وادي الرِّمال)، لا تبحثي عن نافذة تدخلين منها كسارقة، لقد

سرقتِ كل شيء مني، ولم يعد هناك مِن شيء يستحق المغامرة، تمهلي سيدتي إذن .. تمهلي وأنتِ تمرين على جسور (قسنطينة) فأيّة زلَّة قدم سترميني بسيلٍ مِن الحجارة، وأيِّ سهو منك سيرميكِ هنا عندي لتتحطمي معي.

الفكرة

المدينة .. بأحيائها وجسورها وذكرياتها المتباعدة، الذَّات .. بأشواقها وحنينها وخيباتها المتتالية، المرأة .. ببراءتها الطفولية وأمومتها الشَّجية واستحالتها إلى أنثى فاتنة ساحرة .. تلاشى التائه بين كل هذا .. رماد خلَّفه جمر توقد ذات يوم في هذه الزاوية.

النص - صفحة 378

"لا تبحثي عني فوق جسورها، هي لم تحملني مرَّةً .. وحدي أنا حملتها".

"كان (صالح) ثوب حدادك الأول حتى قبل أن تولدي .. كان آخر بايات (قسنطينة)، وكنتُ أنا وصيته الأخيرة".

"فانزعي ملايتك بعد اليوم .. ارفعي عن وجهك الخمار، ولا تطرقي الباب كل هذا الطَّرق .. فلم يعد (صالح) هنا .. ولا أنا".

السياق

تأوه (خالد) مرددًا في نفسه خواطر الفراق الأليم، حشد معه أحزان مدينة لم يتحقق حلمها منذ وفاة الباي (صالح) آخر أمراء العهد القديم، لم يكن الحال فراق أنثى فحسب؛ إنَّه فراق الذَّاكرة والوطن والتاريخ المكنوز في هذه المدينة، ها هي دار البايا (صالح) فارغة مِن ذاكرتها، سرقوا أحجارها وشبابيكها الحديدية، خربوا ممراتها وعبثوا بنقوشها؛ ومع ذلك ظلت واقفة

.. هيكلاً يبول الصَّعاليك والسُّكارى على جدرانه .. مدينة تلبس حداد رجل لم تعد تذكر اسمه.

الفكرة

العشق يموت كما يولد .. في الخراب الجميل فقط .. افترقنا إذن .. يا خرابي الجميل سلامًا، يا وردة البراكين، يا زهرة نبتت على حرائقي سلامًا .. يا ابنة الزلازل والشُّروخ الأرضية! لقد كان خرابك الأجمل سيدتي، لقد كان خرابك الأفظع!! مَن علمك اللَّعب بشظايا الذَّاكرة؟ قتلتِ وطنًا بأكمله داخلي، نسفتِ كل شيء بعود ثقاب واحد!! لم تكوني كاذبة معي .. ولا كنتِ صادقةً .. لا كنتِ عاشقةً ولا كنتِ خائنةً .. لا كنتِ ابنتي ولا كنتِ أمي.

النص - صفحة 380

"لا تكن نبيًا مزيفًا يا خالد .. أنا في حاجة إليك!".

"لا حظتُ وقتها أنكِ لم تقولي أنا أحبك .. قلتِ فقط أنا في حاجة إليك".

"أجبتكِ: أنا لم أختر أن أكون نبيًا".

"وبعناد أنثى يغريها التَّحدي قلتِ: أنتَ تبحث عن مخرج لفشلك المحتمل معي، أليس كذلك؟ لن أمنحكَ مبررًا كهذا .. هات وصاياك العشر وأنا أطبقها".

السياق

في فترة الانقطاع الأخير ظل (خالد) يتذكر حوارات فلسفية دارت بينهما سابقًا، ظل يستذكر كلماتها .. كان نبيًا مزيفًا وكانت أنثى مغرية؛ يموت أبطالها تحت سيف العشق الباتر .. طلبت منه وصاياه العشر فلم يعطها؛ بل أعطاها الوصية الحادية عشر فقط!

الفكرة

وصيته الحادية عشر .. رمزية جميلة: احملي هذا الاسم بكبرياء أكبر، ليس بالضَّرورة بغرور، لكن بوعي عميق، أنكِ أكثر مِن امرأة، أنتِ وطن بأكمله .. هل تعِين هذا؟ ليس مِن حق الرُّموز أن تتهشم .. هذا زمن حقير، إذا لم ننحز إلى القيم سنجد أنفسنا في خانة القاذورات والمزابل، لا تنحازي لشيء سوى المبادئ العظيمة

النص - صفحة 383

"كان يحدث لأخبارك أن تصلني عن طريق المصادفة، وأنا أستمع إلى مَن يتحدث عن زوجك، عن صعوده المستمر، عن صفقاته وشؤونه السِّرية والعلنية".

السياق

ست سنوات من الانقطاع التَّام بين (خالد) و(حياة) من يوم زواجها، (خالد) في باريس كما كان .. يحاول ترتيب حياته وقلبه من غير ضجيج ولا تذمر، من غير أن يكسر مزهرية أو يبدل مكان لوحة.

الفكرة

عودة إلى الوراء .. دون حقدٍ ولا غفران، تعامل باللامبالاة وبغفران أقل، تأتيه أخبارها مِن النَّاحية التي يكرهها .. مِن أخبار زوجها وهو يواصل صعوده بصفقاته المشبوهة .. كومة جديدة مِن اليأس والأسى .. ليس صحيحًا أن هناك غفرانًا وتناسيًا!!

النص - صفحة 386

"أفهمتِ لماذا قتلتكِ تلقائيًا يوم قتلتُ (قسنطينة) في داخلي؟ ولم أعجب يومها وأنا أرى جثتك ممددة في سريري .. لم تكونا في النِّهاية سوى امرأة واحدة!".

السياق

قالت الكاتبة أن بطل روايتها (خالد) كتب روايته هذه ليقتل (حياة) بنفس طقوسها في قتل أبطالها، لقد قرر أن يدفنها في كتاب .. هناك جثث يجب ألا نحتفظ بها في قلوبنا، فللحب بعد الموت رائحة كريهة .. ستقول إشاعة ما إنَّ هذا الكتاب لكِ .. أؤكد لك سيدتي تلك الإشاعة.

الفكرة

رواية (خالد) قبرٌ دفن فيه تلك المرأة .. الوطن .. تلك النَّكرة التي نَقِمَ عليها بعنف، وعاتب مَن سينتقدون روايته فيما بعد بقولهم: هذا الكتاب ليس رواية، إنما هذيان رجل لا علم له بمقاييس الأدب .. أؤكد لأولئك مسبقًا جهلي واحتقاري لمقاييسهم، فلا مقياس عندي سوى مقياس الألم، لا طموح لي سوى أن أدهشكِ أنتِ!! أن أنتقم!! أن أُبكيكِ لحظة انتهائكِ من قراءة هذا الكتاب!!

النص - صفحة 387

"لم أعد أنا سوى شاهد قبر لـ(سي الطَّاهر)، لـ(زياد)، لـ(حسَّان) .. شاهد قبر للذاكرة".

السياق

انتقم (خالدٌ) مِن (حياة) بل قتلها بوابل من رصاص الكلمات الحارقة، دفنها في لحدٍ مِن كتاب وكفنٍ مِن ورق .. هيا يا (حياة) اقرئي هذا الكتاب، احرقي ما في خزانتك مِن كتبٍ لأنصاف الكتَّاب، وأنصاف الرِّجال، وأنصاف العشاق.

الفكرة

مِن الجرح وحده يولد الأدب، ليذهب إلى الجحيم كل الذين أحبوكِ بتعقل دون أن ينزفوا، دون أن يفقدوا وزنهم ولا اتزانهم .. لقد أخذتِ مني كل مَن أحببت .. الواحد بعد الآخر، بطريقة أو بأخرى، تحول القلب إلى مقبرة جماعية ينام فيها دون ترتيب كل مَن أحببت.

النص - صفحة 388

"ذات يوم مِن أكتوبر ١٩٨٨م جاء خبر موته .. ظلت تجهش بالبكاء وتردد اسمي، وأنا أسألها مفجوعًا: واش صار؟".

السياق

في أكتوبر ١٩٨٨م رفع (خالد) سماعة الهاتف ليجيب، فإذا بها (عتيقة) زوجة (حسَّان) تصرخ وتبكي .. قتلوه ..

قُتل (حسَّان) أثناء تواجده في العاصمة الجزائرية، أخذه القدر قتيلاً .. لم يكن في جبهة ولا ساحة قتال، ذهب نهاية الأسبوع ليلتقي بشخصيات وَعَدته بالتوسط في نقل عمله من (قسنطينة) إلى العاصمة.

الفكرة

ضاقت بـ(حسَّان) مدينته (قسنطينة)؛ لم توصله جسورها الكثيرة إلى غايته!! قالوا له في العاصمة ستكون لك خيوط توصلك إلى ما تريد، ولن توصلك الجسور هنا إلى شيء!! كان مقررًا أن تحل قضيته أخيرًا هذه المرة؛ لكن القدر هو الذي حسم ملفه هذه المرة!!

النص - صفحة 389

"أحقًا أن الشقاء يعرف كيف يختار صفاته!! ولهذا اختارني أنا، واختار لي كل هذه الفجائع المذهلة".

"أنا الذي لم أكن أحلم سوى بأن أهبكِ غزالة".

السياق

ما يزال (خالد) يتحسر على استشهاد القائد (سي طاهر) وصديقه (زياد) وزواج (حياة)؛ فإذا بفاجعة أخرى تهدُّ كيانه، (حسَّان) .. يُقتل دون سبب ولا منطق، يُقتل لأنه كان يحلم بحياة كريمة، وتأمين لقمة لعياله وتحسين وضعه المعيشي!! ماذا عليك أن تصنع يا (خالد)؟ هل تستدعي (رقصة الخراب) من رواية (زوربا)؟! أو تتعلم من طائر يُذبح كيف يضم جناحيه راقصًا من شدة الموت!!

الفكرة

ليس الحلم في متناول الجميع .. هل كان عليه ألا يحلم؟ مِن حقك أن تحلم وتفرح، مِن حقك أن تكون طموحًا؛ لكن توقع أن تصل بك الأحلام إلى ضدها بهذه الطريقة.

النص - صفحة 391

"ها هي (قسنطينة) مرة أخرى .. لا (حسَّان) سيغادرها إلى العاصمة .. ولا أنا سأقدر على الهرب منها بعد اليوم، ها نحن نعود إليها معًا .. أحدنا في تابوت .. والآخر أشلاء رجل".

السياق

عاد (خالد) من باريس إلى (قسنطينة) لدفن أخيه (حسَّان) واستقبال العزاء، قُتل (حسَّان) دون سبب، انتهى حلمه بالانتقال إلى العاصمة، هو ذا مكفنٌ في ثلاجة الموتى ولم يتحقق حلمه حتى في الحصول على ثلاجة للطعام الشحيح!!

الفكرة

شبَّه (قسنطينة) بأم طاغية تتربص بأولادها وقد أقسمت أن تعيدهم إليها ولو جثثًا هامدة، هزمتهم وأعادتهم معًا في الوقت الذي اعتقدوا أنهم شُفوا منها وانقطعوا عنها .. وقع حكمك أيتها الصخرة! أيتها الأم الصخرة! فأشرعي مقابرك .. وانتظريني.

النص - صفحة 392

"أنا قررت أن أرقص .. الرقص تواصل أيضًا".

السياق

في ظل المأساة الأخيرة أخذ (خالد) يتفجر حزنًا وهذيانًا، خسر أخاه (حسَّان) ومن قبله كل أولئك العظماء، هل عليه أن يرقص رقصة الخراب الجميل التي ابتدعها (زوربا) اليوناني في الرواية الشهيرة لـ(نيكوس كازانتزاك)؟ هل يستسلم لها ويرقص كمجنون في غرفة شاسعة تؤثثها اللوحات والجسور؟!

الفكرة

بلا فكرة ولا تفكير .. ينغلق الطريق في عيون (خالد)، تتجمد قدماه في لحظة بؤس وعناء، يريد أن ينتفض ولكن كيف؟ يريد أن يصرح ويبكي ولا يستطيع .. للحزن أكثر من طقس وليس للألم وطن على التحديد، تزحف إلى روحه موسيقى الخراب الجميل .. بطيئة ثم سريعة كنوبة بكاء، خجولة ثم جريئة كلحظة رجاء، حزينة ثم نشوى كتقلبات شاعر أمام كأس، مترددة ثم واثقة كأقدام عسكر!!

النص - صفحة 394

"واقفٌ أنا وسطها وكأنني أقف على تلك الصخرة الشاهقة، لأرقص وسط الخراب، بينما جسور (قسنطينة) الخمسة تتحطم وتتدحرج أمامي حجارة نحو الوديان".

"وربما يكون تلقاه هدية منها .. وورثته أنا في جملة ما أورثني من أحزان".

السياق

قُتل (حسَّان)!! وهذا (خالد) يتهاوى في لجة الألم السحيق؛ فليسمّها رقصة الخراب .. كان صديقه (زياد) قد جلب اسطوانة موسيقى الخراب لـ(تيودراكيس) وورثها هو من جملة أدوات (زياد) وتاريخه وأحزانه.

الفكرة

جسَّدت الكاتبة أحزان (خالد) بصورة مرعبة، حشدت معها جسور (قسنطينة)، وأضداد (زوربا)، ومأساة (حسَّان)، بصقت بقوة في وجه القتلة والفاسدين، صرخت: أيّها القوّادون .. السَّراقون .. القتلة .. لن تسرقوا دمنا أيضًا، املؤوا جيوبكم بما شئتم، أثّثوا بيوتكم بما شئتم .. وحساباتكم بأية عملة شئتم، سيبقى لنا الدَّم والذَّاكرة، بهما سنحاسبكم، بهما سنطاردكم، بهما سنعمر هذا الوطن من جديد.

النص - صفحة 398

"لا أدري .. أنا لم أسأل نفسي سؤالًا كهذا قبل اليوم، لقد عشت دائمًا في مدن لا جسور فيها ما عدا باريس ربما".

"لم يعد هناك من ضرورة للحنين بعد اليوم، أنا عائدٌ إليها.. أهبها لك، لأنني أدري أنك تقدرين الفن، وأنها معك لن تضيع".

السياق

قرر (خالد) العودة ثانية إلى (قسنطينة) الجزائر، يومها استدعى صديقته الفرنسية (كاترين)، دار بينهما نقاش فلسفي، سألها عن حبها للجسور؟ فقالت إنها لا تدري! لأنها تعيش في مدن لا جسور فيها عدا باريس .. لم يخبرها بمأساته الأخيرة، أخبرها أن هذه اللوحات التي أمامه كانت تخفف من حنينه لوطنه، وأنه ما عاد هناك من ضرورة للحنين فهو عائد إلى وطنه، وقد قرر إهداءها جميع لوحاته كونها ممن يقدر الفن.

الفكرة

تُشِكل اللوحات المرسومة لجسور (قسنطينة) وغيرها ذاكرة جمعية لـ(خالد)، تمثل خطوط عبور ملونة تصله بوطنه، يأنس بها كلما وقف أمامها وتأملها، واليوم .. بعد فجيعته بأخيه .. يهدي ذاكرته لـ(كاترين)!! عجبًا لهذا المهاجر العائد .. كيف يتخلى عن كنزه الفني ووجدانه الروحي؟ كيف يهبه للغرب الذي استعمره زمنًا؟ للغرب الذي يترصد وطنه وشعبه وهويته!!

النص - صفحة 399

"قلتُ وأنا ألقي نظرة أخيرة على جسدها المختبئ دائمًا تحت الأثواب الخفيفة الفضفاضة".

السياق

اندهشت (كاترين) لقرار (خالد) المفاجئ!! قبلتْ هديته الضخمة بنوع مِن التعجب المشوب بالاستغراب والفرح!! أما هو فكان ينظر إليها من زاويتين مختلفتين: (رغبة ذابلة احرقتها نيران الفواجع - ومحاولة لحفظ الملامح الأخيرة لهذه المعنية بتعليق ذاكرته على جدران بيتها).

الفكرة

فظيع أن يهب الإنسان ذاكرته العزيزة للآخر البعيد، للعدو الذي حارب الهوية والتاريخ والحضارة، شنيع أن يتخلى المرء عن أمجاده وتراثه بدافع الرغبة والجسد، أي مصير لهذا العبث المزاجي .. لا مصير لهذا المسار غير الخسارة والضياع والتلاشي.

النص - صفحة 400

"وأنت؟؟ وأنا .. سأنتظر لأحزن .. حزني مؤجل فقط كالعادة".

السياق

لم يخبر (خالد) صديقته (كاترين) بمقتل شقيقه (حسَّان)، اكتفى بتسليمها لوحاته وإخبارها أنه متعب وعليه أن يسافر فورًا إلى الجزائر فهناك مَن ينتظره.

الفكرة

لم يخبرها بالفاجعة رغم حاجته للبكاء والصراخ أمام أي إنسان؛ لم يستطع ذلك، عقدة قديمة .. الحزن قضية شخصية؛ لذا احتفظ بجرحه في داخله، بدا له أن يتجلد أكثر، أن يستعد لغربة أليمة داخل وطنه.

النص - صفحة 401

"خالد .. لماذا تحيط نفسك بكل هذه الجسور؟ .. أنا لا أحيط نفسي بها .. أنا أحملها داخلي".

السياق

في حوارهم الأخير قالت (كاترين) لـ(خالد) لماذا تحيط نفسك بكل هذه الجسور؟ فأجابها أنه يحملها في داخله! وأنَّه اكتشف أخيرًا كراهيته لها، وكراهيته لكل شيء له طرفان ووجهتان، لكل شيء له احتمالان وضدان؛ لهذا ترك لها لوحاته .. كان يود إحراقها حتى يقطع على قلبه طريق العودة إلى الخلف؛ لكنه لا يمتلك شجاعة (طارق بن زياد)، إحراق بحَّار لباخرته في معركة حربية أسهل من إحراق رسام للوحاته في لحظة جنون!!

الفكرة

كثير من الناس ولدوا على جسر معلق، جاءوا إلى العالم بين رصيفين وطريقين وقارتين، يحملون مأساتهم على الدوام كأنما ولدوا في مجرى الريح المضادة، كبروا وهم يحاولون المصالحة بين الأضداد في داخلهم.

النص - صفحة 402

"لا أريد أن أقضي حياتي وأنا أسلك هذا الجسر في الاتجاهين".

السياق

قال (خالد) لـ(كاترين) أنَّه يريد العودة إلى تلك المدينة الجالسة فوق الصخرة – (قسنطينة)، يريد أن يختار لقلبه مسقطه الأخير، يريد فتحها من جديد كما فعل (طارق بن زياد) يوم فتح ذلك الجبل فحمل اسمه إلى اليوم.

الفكرة

ما الذي دفع بـ(خالد) وأمثاله إلى نكران الوطن رغم الحنين والصبابة؟! لماذا نسلم زمامنا إلى الغرب وننقاد إليه بطواعية؟! واقفٌ منذ سنوات على نقطة استفهام! خارج خطوط الطول والعرض! أين يقع البحر وأين يقف العدو؟ أيّهما أمامه وأيّهما وراءه؟ لا شيء وراء البحر سوى الوطن! لا شيء أمامه سوى زورق الغربة .. لا شيء بينهما سواه.

النص - صفحة 403

"غادرت الوطن في زمن لحظر التنفس، وها أنا أعود إليه مذهولًا في زمن آخر لحظر التجوّل".

"أتذكر وأنا أواجه وحدي هذه المرة مطار تلك المدينة الملتحقة بالحداد".

"يذهلني اكتشافي! ها أنا أصبحت إذن الابن الشرعي لهذا المدينة التي جاءت بي مكرهًا مرتين: مرة لأحضر عرسك، ومرة لأدفن أخي! فما الفرق بينهما؟ لقد مات أخي في الواقع مثلما متُ أنا منذ ذلك العرس".

السياق

يتذكر خالد مقولة لشقيقه (حسَّان) يوم قال: إنَّ (قسنطينة) فرغت من أهلها الأصليين، فهم لا يأتون إليها إلَّا في الأعراس أو المآتم! هو ذا يعود إليها للدفن والبكاء، وكان قد غادرها بعد عرس كان بالنسبة له مأتم وموت ونهاية.

الفكرة

مأساة .. حين يغدو الحلم فيروسًا ينخر الجسد حتى يسلمه للموت، ما الذي نحتاجه كي لا نموت على قارعة الفواجع الرهيبة؟ أسئلة كثيرة تتشارك في إجابتها تصوراتنا العقائدية للكون والإنسان والوجود.

النص - صفحة 404

"وأنا لأنني غادرت وهمي .. ولبست نهائيًا حداد أحلامي".

السياق

كان (خالد) ينتصب أمام موظف الجمرك بذراع واحدة، كأنه ذاكرة نضال تنوح بيوميات الكفاح وتاريخ الاستقلال، لكن هذا المسؤول لم يقرأه .. يستوقفه بعصبية .. يسأله عن أشيائه ومحتوى حقيبته، بينما في البوابات الشرفية المقابلة تدخل حقائب الدبلوماسيين دون سؤال!

الفكرة

مات (حسَّان) ضحيَّةً لأحلامه، أما (خالد) فضحية لارتدائه حدادًا دائمًا لأحلامه، ها هو يقف على منفذ العبور .. يحدث للوطن أن يصبح أمّيًّا .. عندما سأله الموظف: أنت بماذا تصرح؟ فكر أن يجيبه: أصرح بالذاكرة .. يا ابني!! لكنه صمت .. انشغل بجمع مسودات هذا الكتاب المبعثرة في غطاء الحقيبة.

انتهى

أنا في رواية ذاكرة الجسد

لمستغانمي النص - السياق - الفكرة

نعمـان شعلان

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١٠٦٠٩
ردمك: ٦-٥٩٢٠-٠٥-٦٠٣-٩٧٨